من آيات الأدب التركى

الظلال

من ديوان (صفحات) للشاعر التركى الكبير

محمد عاكف

نقله إلى العربية

ابراهيم صبرى

مدرس بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

إن عهد النهضة الذى بدأ فى تركيا سنة ١٢٥٥ هجرية بعد إعلان التنظيمات أى الدستور بمرسوم السلطان عبد المجيد المسمى (كلخانه خط همايونى)، قد أنتج فى الأدب التركى طوال قرن أو أكثر من آثار شعرية أو نثرية ما كتب له الخلود . منها مثلا : آثار نامق كمال وضيا باشا وعبد الحق حامد ورجائى زاده أكرم والمعلم ناجى وتوفيق فكرت ومحمد عاكف التى تتخذ موضوعا للدراسات فى المدارس والجامعات فى تركيا وتأتى فى طليعة تراث هذا العصر فيها .

فرأيت من واجبي أن أقدم نموذجا من ذلك التراث إلى الأوساط الأدبية في مصر واخترت (الظلال) وهي الجزء الأخير من ديوان محمد عاكف المسمى (صفحات)، ذلك أنه قد ألفه في مصر أثناء إقامته بها وتدريسه بجامعتها اللغة التركية وآدابها. وقد أخذ العلماء ولا سيما في عصرنا هذا يدرسون باهتمام تطور نهضات الأمم وآثارها وتنشيء الشعوب المتمدينة معاهد لدراسة مختلف اللغات وآدابها. ومن ناحية أخرى فان هذا الجزء من الديوان الذي ألفه شاعرنا في أرض هذا الوطن وسماه بالظلال كان نشره في مصر أمراً طبيعياً، من أجل ذلك عزمت على نقله إلى العربية ليكون موضع بحث ودراسة في كليات الآداب بجامعاتنا حيث إن الصلة الثقافية والأدبية بين الأمتين وثيقة، لأن اللغة العربية التي ملأت بثروتها اللغوية فراغا كبيرا في اللغة التركية وأصبحت من أهم عناصر البيان العلمي والأدبي فيها، كانت تدرس في معاهد تركيا وجامعاتها إلى وقت قريب واللغة التركية كما أوضحته في محاضراتي (١) لغة أقوام سجل تاريخ الشرق الإسلامي أسماءهم بحروف ذهبية لما قاموا به من أعمال جليلة طوال القرون السالفة، إذ نشأ منهم علماء وأدباء أبدعوا آيات في ساحة الفكر والأدب وساهموا بآثارهم العلمية والفنية في بناء صرح المدنية الإسلامية تلك المدنية التي كانت ولا تزال خطورة أدوارها وعظمة آثارها فخرا للشرق والإسلام بما انطوت عليه من الثقافة والحضارة. وقد أدخلت الجامعات

---

(١) مجموعة المحاضرات ألقيتها في الجامعة .

المصرية دراسة اللغة التركية وآدابها فى كلياتها منذ عهد طويل .

نخليق بنا أن نقتبس كلما أتيحت الفرصة من الأدبيين العربى والتركى، وجريا على هذا النهج قمت بترجمة كتاب الأيام للدكتور طه حسين إلى التركية وقد انتهيت من الجزء الأول وساهمت بكل ما أوتيت من سعة الوقت فى وضع الدراسات المتقابلة ، وأملى وطيد فى أن تنال هذه المحاولات المتواضعة لنشر الثقافتين القبول الحسن على اعتبار أنهما من أهم دعائم حضارتنا الشرقية .

أما بعد ، فان سليقة عاكف الشعرية كما أوضحنا فيما كتبناه بشأن شعره معروف بسلاسة بيانه وعدم التعقيد والغموض فى التعبير، ومن ثم سهل على المترجم حل النظم فى شعره وصوغه نثرا . وقد كانت طبيعة اللغتين فى ترتيب أجزاء الجملة هى الصعوبة الأساسية فى الترجمة ، ذلك أن اللغة العربية تضع الفعل أولا والتركية آخراً ، وأما المشاكل الأخرى فكانت من الخطورة بمكان أيضاً مثل تطور الشعر التركى نحو الجمل الطويلة التى تستغرق أبياتاً كثيرة (Enjambement) ، والبحث عن التعبيرات فى العربية تفيد المعنى نفسه بالتركية والاهتداء إليها بدون الابتعاد عن مقابل تلك التعبيرات تأليفاً ولغة وإحلال ما يقابلها فى الترجمة من كلمات تعبر عما سيق له الكلام فى العبارة التركية(١) .

أما منهجى فى الترجمة فهو بالإجمال عبارة عن استعمال نفس اللون

(١) مثلا قصيدة عنوانها (مع الفرعون وجهاً لوجه) وقصيدة عنوانها (الدرويش أحمد)

والمعنى التركيبين عند تجريد الأشعار عن ثوب ألفاظها التركية وخلع الرداء العربي الصميم عليها مع مراعاة مقتضيات الصياغة فى اللغة العربية، وذلك لتقريب الذوق التركى إلى الذوق العربى بقدر مايسمح به الامكان.

وأملى وطيد ألا يجد من يقرأ هذه الترجمة من اخواننا العرب نفسه أمام أثر أجنبي عن قوله وقلبه، وليس ذلك بفضل مجهودى بل بفضل إخلاص وفصاحة هذا الشاعر الكبير الإسلامى الذى أنطق لسانه بآلامنا المشتركة وترجم عنا قبل أن يترجم بيانه إلينا.

إبراهيم صبرى

حياة الشاعر

نستنتج من قصيدة محمد عاكف المسماة بمسجد الفاتح(١) أنه نشأ قبل نصف قرن أو أكثر بالاستانه فى حى يجاور مسجد السلطان محمد الفاتح ويقول الشاعر فى حاشية قصيدته التى ألفها بمناسبة حرب البلقان(٢) إن والده هو الأستاذ طاهر من مدينة (إبيك) بألبانيا ومن أساتذة معهد السلطان محمد الفاتح .

وقد أتم محمد عاكف دراسته فى كلية الطب البيطرى بجامعة استانبول وأخذ إلى جانب هذه الدراسة الطبية نصيباً وافرا من الثقافة الدينية ، ثم تدرج فى وظائف حكومية إلى أن تركها بعد اعلان

---

(١) «صفحات» الجزء الأول صفحة ٧

(٢) «صفحات» الجزء الثالث المسمى «حقك سسلرى» أصوات الحق صفحة ١٤

الدستور سنه ١٢٢٦ هجرية حيث تولى رئاسة تحرير المجلة الدينية والسياسية المسماة بالصراط المستقيم التى تغير عنوانها فيما بعد وأصبح سبيل الرشاد .

اشتهر محمد عاكف بأشعاره السياسية الدينية التى نشرها فى المجلة المذكورة حتى لقب بشاعر الإسلام فى الأوساط الأدبية مما اعتبرته الحكومة يومئذ أكثر الكتاب جدارة لترشيحه سكرتيرا لدار الحكمة الاسلاميه الملحقة بالمشيخة الإسلامية ، وقد تولى الشاعر هذه الوظيفة حوالى سنة ١٩١٧م واحتفظ بمركزه فى رئاسة التحرير لمجلة سبيل الرشاد المذكورة حتى الأيام التى خرجت تركيا فيها مهزومة من الحرب العالمية الأولى ، وقامت ثورة عسكرية فيما بعد بالأناضول وتشكلت فى آنقرة سنه ١٩٢٢ حكومة الثورة التى لم تعترف بوجود الحكومة القائمة بأمر السلطان الخليفة بالآستانة . فالتحق الشاعر بحكومة الثورة وألف لها شعره المعروف باسم نشيد الاستقلال ، وقد انتخب الشاعر فيما بعد نائباً فى البرلمان الجديد بآنقرة وظل فيه إلى أن قطعت الحكومة شوطاً بعيدا فى تطبيق الانقلاب الاجتماعى الذى اقتبسته من الغرب وكان من ضمنها قانون لبس البرنيطة التى عز على عاكف لبسها(١) فما كان منه إلا أن أباه وهاجر إلى مصر حوالى سنة ١٩٢٤ ، وكان قد زارها قبل ذلك عدة مرات واستقر مقامه فيها

(١) صوك عصر تورك شاعر لرى (شعراء العصر الأخير الترك) لمؤلفه المؤرخ ابن الأمين محمود كمال ، ذكر المؤلف فيه الصفحة الأخيرة من حياة الشاعر بعد سفره إلى الاستانة للاستشفاء فيها .

بعد هذه السنة ، وقد عينته الحكومة المصرية مدرساً لتدريس اللغة التركية وآدابها فى كلية الآداب بجامعة القاهرة حيث اشتغل بالتدريس حتى اعتلت صحته ولما اشتدت وطأة المرض عليه سافر إلى استانبول بغية المعالجة ، ولكن لم يلبث أن وافاه أجله المحتوم هناك وانتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦(١) .

---

(١) كل مارويته عن حياة الشاعر هو من معلوماتى الشخصية ، وذلك اولا لمعاصرتى إياه وثانيا لاتصالى الشخصى به أثناء إقامته بحلوان حيث تقابلنا كثيرا وضمتنا مجالس مختلفة أخرى واستمعنا إليه وهو يتكلم عن ظروف حياته الفنى . ولابد من التصريح هنا بأنى تقدت مسلك الشاعر السياسى مع بعض آخرين من فحول شعراء الترك المعاصرين فى أثر منظوم ينطوى على أكثر من ثلاثمائة بيت ألفته باللغة التركية قبل نيف وعشر سنوات ، أما هذا البحث فلا ينطوى طبعا على رأيى الشخصى فيما يتعلق بحياة الشاعر السياسية وقد جعلت الحياد المطلق نصب عينى فى كل ما سردته من البحث والتنقيب فى هذه التعليقات .

شعر عاكف ورسالته فيه

إن الذين ولدوا بالآستانة فى السنين التى أعقبت سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية[1] استمعوا فى مهدهم — كما كتبته فى تأليفى المسمى (الشعراء الفكريون)[2] — إلى نوع من الشعر الوطنى على لسان أمهاتهم ونشأوا على أنغامه الملقنة ببذل كل ما أوتوا من قوة الشباب لتشييد الوطن الاسلامى الحر الذى كان يرفرف العلم العثمانى على أراضيه المترامية الأطراف وإقامة ذلك الوطن قومة رجل واحد ضد كل من يحول دون تقدمه فى ركب الحضارة والرقى وممارسة حقوقه المتعلقة بمصيره . هذا الدور هيأ فى الوقت نفسه أسباب التجديد فى

---

(١) أشعار أبى المجددين الشاعر شناسى ونامق كمال
(٢) تحت الطبع

الأدب التركى مع المحافظة على صلته بماضيه الاسلامى على نمط التجديد الذى بدأ بعهد التنظيمات أى الدستور الذى قام باعلان افتتاحه رشيد باشا الكبير الصدر الأعظم الذى قرأ المرسوم المسمى (كلخانه خط همايونى) الصادر من لدن السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٥ هـ بميدان (كلخانه) بالآستانة وأعلن فيه الدستور العثمانى الجديد الذى استلهم واضعه فى تدوين نصوصه إلى جانب المبادىء الحقوقية التى تقررت فى الغرب بعد الثورة الفرنسية وأصبحت فى أوربا شعاراً سياسيا لنظام الأمم المتمدينة الاجتماعى .. استلهم الأحكام المستنبطة من الشريعة الإسلامية .

وقد أعقبت هذا العهد الذى كان يتقدم من وجهة النظام الاجتماعى نحو النظم الغربية ، أدوار سياسية تعاقبت فى محاذاتها بعد أدب عهد الدستور أدوار أدبية أخرى منها دور ثروة الفنون الذى نرى الشاعر محمد عاكف يقف منه موقفا خاصا بحيث لو جلونا نواحى هذا الدور التاريخى لاستطعنا أن نكتب بدون إسهاب عن شعر هذا الشاعر التركى المعروف ورسالته ، مطمئنين إلى أننا أوضحنا رسالة عاكف فى شعره ومكان شخصيته الفنية من الأدب التركى . ورغبة فى الاختصار سوف نؤثر أن ننقل ما كتبه الكاتب المعاصر إسماعيل حبيب ، مؤلف تاريخ الأدب التركى الحديث فى المقارنة بين أدوار الأدب التى تقدمت أو صادفت ظهور شاعرنا مثل عهد الدستور ودور ثروة الفنون وبعد ذلك سنقوم بمواصلة بحثنا على ضوء تلك المقارنة .

قال الكاتب ما ترجمته فى صفحة ٥٨٤ إلى ٥٩٣ من تاريخه المذكور:

« استطاع (لومير) صاحب مجلة (پارناس) قبل نصف قرن فى پاريس أن يجمع فئة من الشبان حول جريدته فعرفوا باسم (پارناسيان) نسبة إلى هذه المجلة. وهنا أى فى استانبول قبل ربع قرن جمع أحمد إحسان بك فريقا من الشبان حول مجلته المسماة (ثروت فنون) ثروة الفنون فعرفوا باسم (ثروت فنون عائله سى) أسرة ثروة الفنون. وقد شق جماعة (پارناس) طريقهم متكاتفين يجعلهم الفن متعاطفين بعضهم على بعض ويقوم مقام النسب وصار أصحاب ثروة الفنون يعرفون باسم اسرة ثروة الفنون. بيد أن الفريق الأول قد اولعوا بالشكل وأتوا إلى الأدب بأسلوب جديد ولون حديث فزودوا الشعر بطبيعة بلورية وزودوا النثر بروح واضحة شفافة. وقد حاولت جماعتنا هذه المحاولة نفسها فزفوا إلى الأسماع تغريدا جديدا وعرضوا على الأنظار صورا حديثة من الشعر والنثر، وقد صارت جماعة «پارناس» مرحلة فى تاريخ الأدب الفرنسى، أما أسرة ثروة الفنون فقد بلغت غاية وقف عندها الأدب التركى.

« إذن فما هو موقف عهد أسرة ثروة الفنون من تاريخ أدبنا؟..

« إن مهمة أسرة ثروة الفنون الأولى كانت تعمل على إبعادنا عن أدب الشرق. ولما كان الدين أمرا لا يقتصر على أمة بعينها، ولما كان أدبنا قد فقد شخصيته لاندماجه فى المدينة الاسلامية ووقوعه تحت

سيادة الثقافة العربية والإيرانية ، ولما كان الأدب القديم الذى نسميه بأدب الدواوين (المجموعات الشعرية) قد اعتمد فى ذوقه الفنى وغذائه الروحى على ورود مناهل الثقافة الاسلامية — وهى تمثل مدنية لا تمتاز بطابع قومى أو وطنى ، فمن أجل ذلك كان الأدب الذى تطور فى عهد التنظيمات اى عهد الدستور الذى أعلنه السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٥ ه وسبق عهد ثروة الفنون ما هو إلا محاولة للتخلص من القيود السابقة . وقد قطع أدباء عهدالدستور روابط كثيرة قوية كانت تربطنا بالماضى . على أنهم لم يتحرروا منها تحررا كاملا إذ حافظوا على صلتهم من حيث الذوق والإحساس بهذا الأدب الإسلامى الشرقى على نطاق واسع .

• فما كان من أسرة ثروة الفنون إلا أنهم قد قضوا على الروابط الباقية وابتعدوا عن الأذواق الأدبية لذلك الماضى ملهمين طرق نظمه وجعلوا ذلك التحرر الذى بدأ بمحاولة عاكف باشا (من شعراء عهد الدستور) وأمثاله انطلاقا من القيود بأسرها . ومن ثم يجب أن نعترف بخطورة هذا العمل .

• وكان من الواجب على أدباء ثروة الفنون أن يقوموا بأمر ثان سوى ما قاموا به من الانفصال عن الماضى ألا وهو الاتيان بالغرب إلى أدبنا . . فهل استطاعوا القيام بهذه المهمة ؟.. أجل قاموا بها عن طيب قلب وبأكثر منها متهافتين على أدائه بوجد صوفى حتى إنه ليمكننا

اليوم أن نستدل على الأدب الحقيقي بالتنبيه إلى نقيض ذلك الاكثار .

« وقد بقي التوازن بين الثقافة والمدنية عند أدباء عهد الدستور دون أن يختل ، أما عند أسرة ثروة الفنون فقد ابتلعت المدنية الثقافة بيد أننا كنا نملك الثقافة وكانت المدنية للغرب ومن ثم نرى الغرب فى أدب ثروة الفنون ولا نرى أنفسنا . وقد زعم جميعهم بأنهم ليسوا مدينين لنا بشيء وأعلنوا براءتهم منا وما صنع عجين أدمغتهم إلا بخميرة الغرب ، كما أن ذوقهم الفنى لم يتغذ إلا بغذاء من الغرب قال مؤلف (الحياة المخيلة) :

« لم نستق من الآثار التركية شيئا ما وتربيتنا الفكرية إنما تطورت بثقافة الأدب الفرنسى وما فيه من نقد وفلسفة . .

« فكان عليهم إما أن يتركونا ويذهبوا إلى الغرب أو أن يرجعوا من الغرب ويدركوا حياتنا ولكنهم لم يتمكنوا من كلا الأمرين اعتقدوا أنه فى الامكان تقويم حياة شعب بفن عصرى فقط .

« إن ادب عهد الدستور قد فاض على ثغور الوطن وجال فى حلبة وسعت ما بين خوارزم والأندلس . إنه كان يبحث عن المسلمين أكثر مما يبحث عن مواطن تركى . أما ادب ثروة الفنون فكان قاصرا لم يستطع أن يتخطى حدود ضاحية (آياستفانوس) وقرية (ككبوزه) بجوار استانبول فكان من اليسير أن تحس أن هواء هذا الوطن لم تتخلل نسماته ذلك الأدب . . »

إن هذا الدور هو ، كما اتضح مما قاله اسماعيل حبيب ، دور التوطئة للدخول فى واد جديد افتتحه الافكار الآتية من الغرب للشعراء الأتراك المتأخرين الذين نشأوا منذ قرن أو أكثر وألفوا دواوين فى الشعر المتطور نحو التجديد فى اللغة والمعنى والأسلوب ، تترنم بالهامات معينها الثقافة الغربية على نقيض ثقافة الشعراء الإسلاميـة الذين سبقوهم وساهموا بآثارهم الشعرية والنثرية (١) فى بناء صرح المجتمع الجديد المزمع إنشاؤه منذ زمن السلطان عبد المجيد الذى سبق ذكره .. إن دور مجلة ثروة الفنون هو بالأوضح ذلك العهد الذى أتى فريق من الشعراء بعد عهد الدستور بنصف قرن تقريبا ، تغلبت عليهم نزعة الذوق الغربى تلك النزعة التى كانت ترمى عند بعضهم نحو الابتعاد عن الماضى وحث القوم على قطع أواصره به ، أواصر ذلك الأدب الذى كان خليطا من ثقافة اشتركت فيها امم اسلامية مختلفه وكانت ترمى عند بعض معاصريها إلى التقدم فى التجديد مع تقوية تلك الأواصر والنظر إلى الثقافة الخليطة كثقافة الأمة الاسلامية المشتركة (٢).

لقد كان عاكف ممن تأثر خطوات عهد الدستور على هذه النزعة الأخيرة ، وهو شاعر غمره منذ نعومة أظفاره فيض من الاحساسات الدينية من بيت والده إلى معهد دراساته الشرعية التى قام بها إلى جانب دراساته الطبية ، وأدب ثروة الفنون ، كما نقلناه عما كتبه عنه إسماعيل

---

(١) أشعار ضيا باشا ونامق كمال

(٢) أشعار المعلم ناجى

حبيب ، متأثر أدب (پارناس) الغربي ومبتعد عن الماضي وقاض على ما بقى من روابطه وامتازت إلهامات بعض شعرائه بطابعها الشرقى . فجاء عاكف الذى تأثر الأدب الشرقى الإسلامى بألوانه العربيـة والفارسية والصوفية فى زمن انتشر فيه أدب ثروة الفنون الذى كان هو من معاصريه وأراد أن يعيد هـذا الأدب بأسره إلى ساحة تلك الثقافة والإحساسات المشتركة للامم الاسلامية(١). والشاعر توفيق فـكرت الذى يحمله أدباء ثروة الفنون على رؤوسهم إجلالا كان قد وجه بعد نامق كمال الشاعر الوطنى المشهور هـذا الأدب الذى وصف معارضوه شعراءه بالمنحلين Décadents نحو التعبير عن الالهامات الوطنية الصرفة فى ظروف سياسية قومية بأشعاره المعنونة . الضباب ، ونحو سنة ١٢٩٥ هـ والرجوع ورد الرباب .

إن ادباء عهد الدستور الذين تكلم عن نزعتهم الـكاتب اسماعيل حبيب فى مقارنته بين العهدين الأدبيين ، كانوا فى الحقيقة خلفاء لقافلة الشعراء التى تسلسلت من أول نشأة الدولة العثمانية وفقا لترتيب تاريخى كامل . والتغير نحو البساطة فى اللغة الذى بدأ على لسان مصطفى رشيد باشا بطل إعلان الدستور سنة ١٢٥٥ هـ وعاكف باشا وشناسى وضيا باشا من شعراء عهد الدستور والتجديد الذين شعروا أن نفوسهم مرتبطة بالعرى الوثيقة الممتدة من قلوبهم وعقولهم نحو المجتمع الذى ينتمون إليه . ذلك التغير الذى لم يكن فى الحقيقة ناتجا عن تعمد يرمى

(١) أشعاره فى ديوانه المسمى (صفحات)

إلى التبديل ، بل نتيجة تطور لغوى طبيعى بدأ منذ عهد أحمد باشا وسنان باشا كلاهما من معاصرى عهد السلطان محمد الفاتح حتى انتقل إلى باقى ونفعى ونديم والشيخ غالب وراغب باشا وأخيرا إلى عزت ملا وعاكف باشا الذين كانوا يتكلمون باللغة التى يلقنونها وهم فى مهد الأدب ، فشعراء أى عصر كما هو معلوم على الرغم من أنهم يكتبون بأساليب مختلفة يتكلمون باللغة عينها وأدباء ثروة الفنون الذين جاءوا فى أعقاب عهد الدستور ساروا على آثار القافلة التاريخية تسوقهم طبيعة اللغة .

ولقد اعتزل أدباء ثروة الفنون وابتعدوا عن أدباء عهد الدستور لبناء زمانهم الذى حاولوا اقتباس ذوقه وثقافته من الغرب فحسب ، أما شاعرنا فأراد أن يعيد هذه القطعة من الزمن إلى ساحة جريانها القديمة بأفكارها الشرقية القومية الإسلامية التى هى ساحة شعر الترك طوال القرون بحيث لو أن عاكفا ألف ديوانه الكبير المسمى (صفحات) فى عهد الدستور قبل أن يتداخل بينهما زمن ثروة الفنون لما عرف باسم شاعر الإسلام كما هو معروف اليوم بل باسم الشاعر الوطنى ذلك اللقب الذى لقب به الشاعر نامق كمال .

إن شاعرنا أراد أن يسوق القافلة باسطا خياله وإحساساته على أرض الزمن إلى ساحة الإلهام الموروثة عن باقى ونفعى اللذين ترنما بمفاخر الدولة العثمانية الإسلامية فى عصورها الذهبية ، وهذه الأشعار التى يضمها ديوان عاكف (صفحات) تنطوى كلها على رسالة فكرية

يعالج فيها الشاعر موضوعات سياسية إسلامية شتى لهذه الدولة المغلوبة على أمرها .

وبعد هذا التمهيد بالاشارة إلى موقف الشاعر من تطور الأدب التركى الحديث وعرض دوره الذى قام به فيما يتعلق باتجاه مجرى ذلك الأدب ، نستطيع أن نتنقل ببحثنا إلى موضوع شعره ورسالته فيه ونقول إن أشعار عاكف فى ديوانه (صفحات) يشهد كلها بأنه كان ينظر إلى الوطن الإسلامى على اختلاف أمما نظرة وطن واحد ويؤلف أشعاره بوجد دينى بحيث تبلغ عواطفه فى بعض القصائد أشدها وهو يظل يترنم بالمثل العليا الإسلامية ويقدمها إلى الوطن الإسلامى .

يكتب الشاعر مثلا فى هذا الجزء الأخير الذى نقلناه إلى العربية أشعارا جياشة يقيم فيها الخيام لليلى الإسلام من هالة الهلال حيث يقول فى القصيدة المسماة (ليلى) :

كلا ! للشرق ـ لذلك المجنون البائس المنكر ذاته ـ
ليلى واحدة ما هى إلا مستقبل الإسلام
ولا يعرف سواها وقد تفانا فى حبها
وقد يستغرق اليوم فى ذكرها وقد يغرق غدا فى ذكراها
فتعالى ياليلى أيتها الحبيبة التى هى إلى النفس أقرب من الروح لا تبتعدى
لا تتجنى على المجنون الذى أنكر لك حياته غير مرة !
تأملى أعاظم أبناء الشرق فى البطولة
فى سبيل من ضحوا على مر الأيام ومثل بهم أشنع التمثيل ؟ . .

لم يطير جناحك فى العلو السامق ولا ينزل إلى أن يحوم فى سماء هذه الخليقة ؟
وإن لم يكن على هذا التراب ما يمكن به إعزازك
فما الشفق إلا بساط طريقك وما الفجر إلا مصباحك
وما هلالى إلا خيمتك التى شيدت فى قلب السموات
وما الأذان إلا نشيدك تئن به الأرجاء رهبة وخشوعا
وما الأعلام والقبب إلا جهاز عرسك الذى نزل من عند الله
وما الجماعات إلا عبيدك وما الكعبة إلا خدرك . . تعالى ياليلى ،
تعالى أيتها الحبيبة القريبة أكثر من الروح لقد لبثت غائبة إلى الآن ! . .

إن مسلك عاكف الإسلامى فى الشعر دفعه فى حماسته له للانضمام إلى الثورة التى قامت قبل أكثر من ربع قرن فى الأناضول ضد استيلاء الجيش اليونانى حيث ألف نشيد الاستقلال كما كتب فى آنقرة عاصمة الجمهورية الجديدة التركية قصائد عديدة وهى المنتشرة فى هذا الجزء الأخير من الديوان ، وكانت الخلافة قد ألغيت يومئذ فى تركيا بقرار من حكومة الثورة وتغيرت النظم الاجتماعية فيها الأمر الذى أباه الشاعر فيما بعد وهاجر إلى مصر كما أسلفناه فى فصل حياة الشاعر وكان قد كتب أيضا قصائده الحماسيه فى الحرب العالمية الأولى(١) التى تمزقت فيها أوصال الامبراطورية العثمانية وترنم فى تلك القصائد ببطولة الجيش التركى مما يتضح لنا أنه ينظر دائما خلال حمم التهبت فى قلبه بعشق الاسلام وحينما رأى بلادا مسلمة

(١) صفحات . الجزء السادس المسمى (عاصم) .

وجبهة حرب مسلة وجريحاً مسلماً انثنى عليه وانتحب دون أن ينفذ في بواطن الشئون السياسية .

هكذا نرى الشاعر في حداد مستمر على طول قصائد ديوانه الكبير (صفحات) يتخبط في بركة من العبرات التي يسكبها على مهب الكوارث النازلة على تركيا خاصة والعالم الإسلامي عامة حيث يحصى المصائب ويكشف القناع عن أسبابها تارة ثم ينزل باللائمة طوراً على الأمةالإسلامية التي لا تتعظ ولاتنتبه إلى بواطن مرضها الذي أوشك أن يصرعها .

أما قصائد هذا الديوان (الظلال) فقد كتبها عاكف أثناء إقامته بحلوان وطبعها في مصر وهو غريب عن وطنه . نفهم من قراءة الديوان أنه شعر بمرارة الهجرة وحزن الوحدة عندما ألقى نفسه آخر المطاف محاطاً بالقفار حيث لا أنيس له ولا زائر وقد خيمت الغربة وليالى الهجران على حياته فنزل إلهام القصائد التي يحويها هذا الديوان على قلب الشاعر كلما اهتزت مشاعره وهاجت عواطفه على ذكريات الماضى التي ذكرها طوال أيام الغربة المهجورة .

وإنه ليبدو واضحاً لدى القارىء أن قصائد (الظلال) كانت تنعكس على صفحات الشاعر كلما بدت سحابة ألم في سماء فؤاده ومرت خلال أضواء أفكاره ، ومن ثم لا نجد موضوع (الظلال) منسقاً وموجهاً إلى هدف معين صريح كما هو الواقع في معظم أجزاء (صفحات) الأخرى التي يعالج الشاعر فيها من أول الكتاب إلى آخره

وتحت عنوان واحد كثيراً من مشاكل الأمم الإسلامية كما أسلفناه مثل أشعاره المسماة (على منبر مسجد السليمانية) و (على منبر مسجد السلطان محمد الفاتح) و (عاصم) . . حيث نراه يظهر واسع العلم فى فنون شتى مثل الشاعر الفرنسى فيكتور هوجو الذى يتناول العلوم الأدبية والفلسفية بمقدرة فائقة فى معظم تأليفاته . بل نجد (الظلال) قصائد منفردة قالها الشاعر فى فترات وجد فيها متسعاً من الوقت للتأليف بينما كان شغله الشاغل همه بكسب قوت حياته فى مصر .

على أن هناك بعض القصائد من (الظلال) ما يكفينا للتكلم عن الديوان كله ، فعندما نحلل قصائد هذا الديوان نصل الى النتيجة التى تصور لنا أن الشاعر ، وهو بين جدران زاويته فى المهجر ، رد نظره الى نفسه من الآفاق التى كان شاخصاً اليها منذ أمد بعيد فتراءى له معظم الظلال كأشباح واقتبس منها معالم الصور التى رسمها فى بعض القصائد وذلك بوضوح يقطع بأنه يقصد نفسه .

إن القصيدة التى عنوانها (الأستاذ حسام) تفصح لنا عما يختلج بقلب الشاعر من إحساس التجلد إزاء ماض طال أمده قضاه الرجل كله فى سبيل مبدئه ، يقول عاكف ما ترجمته :

لقد انقضت خمس وخمسون سنة وأنا أمضى فى هذا السبيل

الذى قطعت فيه شوطاً كبيرا من حياتى وما زلت بعيدا من نهايته

فاذا ما رجعت فهى الطامة الكبرى ! .

ويشير على لسان (الأستاذ حسام) إلى موقفه من المثل العليا التى آمن بها طوال حياته .

ثم إن الشاعر الذى نجده على طول قصائده فى ديوانه الكبير لا يتكلم عن نفسه ولا يفكر فيها ، بل يحيط كل كيانه طوال حياته بطوفان من بكائه المنهمر على مصائب العالم الإسلامى ، نراه فى هذا الجزء الأخير يستعرض بلاده وبلاد الإسلام بنظرة أخيرة وهو يوجه نظرة فاحصة الى وجدانه ، وعندئذ تطرأ تعبيرات صوفية على لسانه الذاهل من ناحية اللانهائى الذى استغرق فيه بالتأمل فى أعماق نفسه. وقد ألف قصيدتيه (الليل) و (السجدة) على أسلوب يذكر وجده أسلوب مولانا جلال الدين الرومى الذى كان شاعرنا يكثر فى تلك الأيام بحلوان من قراءة مثنويه باجلال مريد من مريديه .

إليك بعض الأبيات منهما :

إنى نظرت بالأمس إلى هذا الكون الموحش ياله من حانة جائشة
رأيت السكارى اليوم وقد ثملوا بجرعة وقد علوا بها بعدما نهلوا

... ...

يمينى ثملة وشمالى ثملة ، رباه ! مهما صنعت فلا جدوى .

... ...

إن العالم كله ثمل بشراب التوحيد الذى أسقيته أنت !
أنا وحدى مجذوبك الذى لم يثمل والميدان الآن لى ! .

... ...

رباه ! أنا قطرة تائهة منك ، ألا تكفينى خسارتى ؟

رباه ! أشفق على هذا الوجد الطريح الفاقد الوعى ،
دع وجودى فليكن قطعة واحدة من السجود مع الكون !
قد مضت الأعمار وأنت لا تأتى ، فتعال أيها المعبود الوحيد ،
إلىّ أيها الغائب الوحيد إلىّ أيها الموجود الوحيد ! .

... ...

لا أريد الآفاق والأنفس إذ هى خلاء مطلق بدونك ،
أنا مجنونك وأنت وحدك ليلاى التى أعبدها !
من الأزل وأنا ثمل بنظرتك الفاتنة التى سقيتنى إياها .
إلىّ أيها الساقى السرمدى ، نحتفل بذكرى ميثاق (ألست بربكم) !
ناولنى جرعة أو نصف جرعة ، ولكن من الخمر التى كنت سقيتنى
وحينما يئن وحى ذلك الشراب الإلهى فى كل ذراتى
فلتسكت أصوات الطبيعة كلها وتترك المجال لأنينى .
إلىّ يا سيد الأكوان ، إلىّ ياليلى وجدانى !
ولتكن نهايتى — إن كانت هناك نهاية — فى كنفك أنت حيث الذكرى..

على أن الشاعر لا ينسى بلاده خلال هذه الالهامات الصوفية فينتابه ذلك الألم الأبدى الذى شعر به كلما فكر فى مصائب العالم الإسلامى فيبلغ اضطراب الشاعر ذروته حين يؤلف فى حلوان القصيدة الآتية المسماة [الفنان] وقد طلب فيها إلى الأمة التركية الممثلة فى شخص (الفتاة) أن لا تريه دموعها قائلا :

والله يشهد ليس صدر يطيق — ولو كان حجرا —
هبوب العاصفة الممطرة التى تدور فى عينيك
كلا . . لا أطيق نار إحساسك بالآمى
أتركينى أبك وحدى . . ذرينى !
إن الألم الذى أشعر به فى قلبى الخرب
لم يسمع بعد من لسان معزفى ،
أى بلاء تخطانى فلم يصبنى ؟
أخيال وطنى الذى استحال كومة من الرماد
أم ضعة أمتى التى خسرت بلادها ؟

... ...

أنا فى زورق متداع يندفع بى فى عرض البحر
تارة تنسفنى الأمواج الجائشة
وطورا تهوى معى الهوة الجهنمية التى تتفتح أمامى
فتملأ الفضاء أنينا . .
وتارة يدوى الرعد المختفى تحت السحاب
ويمزق الظلمات ويكشف عن منظر سمج
يجعلنى أسأم الحياة .
فمالى أكافح فى المحيط الذى بقيت فيه ؟
كل ما استمسكت به هو قطعتان من الخشب .
لست أدرى ما غايتى وما مكانى ؟ وما وجهتى وما جهتى ؟ . .

هكذا مضى الفنان الشاعر فى سبيله وحده ولم يرض أن يشارك آلامه أحد بحيث عاش فى مصر غير معروف وعانى مشاق الحياة فيها بكل صبر وجلد إلى أن شعر باقتراب اجله فقال لشريكة حياته :

لم ألبث أن أسرعت لكى أخرجك إلى النور
يا من رافقتنى طول حياتى المتموجة !
لقد تخطيت كل ما اعترضنى من جبل أو صخور
غير ان الذى يصدم جبينى هذه المرة هو حجر قبرى . .

ثم لم يلبث أن فارق الحياة رحمه الله .

وقد اتضح مما أسلفناه من التحليلات السريعة على ديوانه أن للشاعر عاكف رسالة فكرية انفرد بها بين شعراء عهده وتعرض فى سبيل الذود عنها لحياة الغربة . على أنه لم ينفرد من حيث تلك الرسالة الفكرية فحسب بين شعراء عصره ، بل امتاز بسلاسة بيانه أيضاً ، وإن من يقرأ ديوان عاكف لا يرى فيه مصراعاً واحداً يوجد فيه ما يؤاخذ عليه من جهة الصرف او النحو او الوزن والعروض حيث برع الشاعر بسليقة شعرية سهلة إلى حد أنه استطاع أن يدرج الفاظ إخطار رسمى فى إطار النظم بحيث لم تختلف صيغته وتعبيراته عن أى إخطار عادى(١) وأنطق الشعر حركات المصارعين ومن ثم اعتماده على رصانة شعره وخلود آثاره حيث ظل يقدم أشعاره أكثر من ربع قرن فى المجلات والدواوين إلى أن أدرك أن ديوانه لن

---

(١) صفحات . الجزء السادس المسمى (عاصم) صفحة ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧

يقرأ كما فى السابق لحلول الحروف اللاتينية فى تركيا محل الحروف العربية التركية ، فهذه القطعة الآتية التى قالها بعد ذلك الانقلاب الحرفى ليست إلا صرخة ألم خرجت من قلبه الذى لم يلبث أن وقف ، وهكذا طويت آخر صفحة من هذا العمر الخرب الذى أفناه ـ كما يقوله ـ فى سبيل شعره ورسالته:

« تعيش بعدى وتذكرنى بالخير »
هكذا كنت أقول كلما نظرت إليك يا كتابى المسكين !
من كان يعتقد أنك ستقضى وسيبقى بعدك
عمرى الخرب الذى أفنيته فى سبيلك ؟ . .

ا . ص .

محمد عاكف

صفحات

الجزء السابع

الظــــلال

١٣٥٣ هـ — ١٩٣٣

مصر

إلى

فنان الشرق العبقرى الوحيد

الأمير الهاشمى محيي الدين

آية إجلالى

خسران

ما كان هواى أن أقف هكذا معقول اللسان ،
بل كان هواى أن اصرخ كى أوقظ الاسلام
فانما يجيش صاحب العاطفة القوية والايمان الفياض ،
أما أنا فقد كنت عاجزاً حتى عن التمادى فى التفكير ..
ولكن بمن أنادى ؟ . . ولقد تولى أصحاب الوطن !
نظرت ذات اليمين وذات الشمال فاذا الأجانب قد احتلوا كل ناحية ،
فما كان منى الا أن خنقت صراخى ثم أخذت جثمانه
وقطعته إربا إربا ثم دفنته فى شعرى . .
هيهات ، أن يغمر أنينى صفحات الوادى كأنه السيول !

فكأنى انحدرت بدون خرير مثل الدمع المنهمر
فلا أثر لألمى تحت هذه القبة الصماء
كما أن خيبتى تئن فى صفحاتى(١) بدون عويل !

استانبول — ١٣٣٥

---

(١) اسم ديوانه الكبير

الشرق

لقد غش أبصارنا كابوس الغرب الدامى وحال دون النظر ،
فمنذ قرون شل عقل المسلم وساعده .

يسألوننى : « إنك طفت بالشرق فماذا رأيت فيه ؟ »

رأيت بلاداً خربة وأسراً منكوبة وأمماً بلا رأس
وجسوراً متهدمة وقنوات معطلة وطرقاً من غير سابلة
ووجوهاً مجعدة وجباهاً لا تندى بعرق وسواعد عاطلة
وظهوراً مقوسة ورقاباً نحيلة ودماء منطفئة الحمية
ورءوساً غير مفكرة وقلوباً غير آبهة وضمائر صدئة
وضروباً من نفى وأسر وجبروت وذل

ورياء وعلل وأمراض وبيئة ..
ومداخن لا يرتفع من فوهاتها الدخان فاتخذها العنكبوت بيتاً
وغابات محترقة ومزارع جرداء وبيوتاً علتها الحشائش وبيادر متسنهة
وأئمة بدون جماعة ووجوهاً قذرة ورءوساً لم تعرف السجود
وإخواناً فى الدين يقتتلون باسم الجهاد
وأمكنة غير معمورة وقرى بلا سكان وسقوفاً متداعية
وأياماً حرمت السعى وليالى لا تعرف فكرة الغد . . .

مضيت باكياً حينما مضيت ووقفت باكياً حينما وقفت ،
ولقد طرقت كثيراً من الأوطان المكتئبة فما من سميع ولا مجيب ،
وليس أمامك إلا المقابر وعوالم الآخرة تعلو وتمتد ،
ما فى الأرض وجه باسم ولا يهبط من السماء نور ضاحك ،
وإنما تقرع سمعك أنات آلام لا حصر لها تأتى من الأعماق ..
أما الآفاق فهى طوق أحمر فى عنق الاسلام المطرق ،
والصدور تختنق بحشرجة الموت والسلاسل تضيق ،
وثلثمائة وخمسون مليونا من الأرواح تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة .
رباه ! أهذا العالم الذى رأيته كان مهدا للبشر ؟
أمن هذه القفار نهض كل عمران التاريخ ؟
وهل هذه الزوايا الخاوية كانت موطنا للتوحيد ؟
وهل هذه الرمال يارب، هى التى تفجرت رسلا وأنبياء ؟

فى حين ما كان تألق بعد ، برق الايمان فى سماء العالم ؟
أمن هذه السموات يارب، كانت الأديان تتنزل تنزيلا ؟
أهذه السواحل هى (سرنديب)، أم هل هذه الجبال هى (الجودى)؟
وهل أجرام هذا الاقليم هى التى أرشدت ابراهيم الى الطريق ؟
هل من هذا التراب شيد الحرم وبيت المقدس ؟
أم أنين مزامير هذه الأودية كان ينتشى داوود ؟
وهل (حراء) و (الطور) كانا من آيات هذه الآفاق ؟
وهل من هذه الأحجار فاضت أسرار روح الله ؟

ألم تكن تعلو فى الشرق (الكرنك) و (الأهرام) وسد الصين وايوان كسرى و(الخورنق)وحديقة(ارم)وسور بابل كناطحات السحاب ، فى حين كان الغرب مدفوناً فى غياهب الوحشية ؟
وهل تلك الأزمنة الغابرة أصبحت الآن يارب حلما زائلا ؟
وماذا تصنع روحنا القلقة رباه !. هل تيأس من آمالها فى نهضة الشرق ، حينما ترجع عن أعتاب ملكوتك؟
إننا قد مللنا هذه الخيبة وحسبنا هذا الخسران!
رباه ! أين نفحة منك تحرك الشعور الجامد
وتدفع الصدور الصرعى عن نفسها ذلك الكابوس ،
وينهض الشرق مطالباً بحقه فى الحياة وإن أنكره العالم ؟

استانبول ١٣٢٤

لا بد أن تنـدى الجباه

وقفت متفرجا بلا حراك حينما زلزلت أركان العالم ،
فأصبحت اليوم تائها شريدا فى وطنك ،
إن الحياة حق لك بدون شك فاصدع بحقك !
فالقبة صماء لا تسمع إلا صوتا واحدا فقط هو: نداء طلب الحق !
ومن تلك الصرخات التى لا حصر لها تئن الجبال والمحيطات ،
فمن الذى يصغى الى بكاء المسكين المظلوم الصامت ؟
أنت ما زلت تحبو على الأرض مثل الرضيع ،
بينما ترى وثبة البشر ليسيطر على الجو
قد أهاج البراكين وسيرها فى أفق العالم

وجعل الجحيم يصطرع فى قلب البحر،
وقد تعمق فى الأرض وكشف الآثار من أطوار الخليقة
ومزق الآفاق وحاول أن ينفذ فى أسرار القوة الفاطرة
وقد سخرت الأرض لارادته وأصبح الزمن تحت سيطرته ،
إنه ليحاول وهيهات أن يسيطر على البعد المطلق !
هذه الطبيعة التى تملك ألف عضد من الفولاذ ،
تعال انظر كيف يحكمها عضد ضعيف ثم تعجب ما شئت!
كلا ! ليس عضدا واحدا بل إنها الوف الألوف من السواعد
اتحدت كلها وعملت لأنها لا تملك الا الوحدة ،
أما الخيبة فهى عاقبة الجهد المنفرد !
إن ما ترشح به الجبهة الواحدة قطرة غير مجدية ،
إن العالم قد تبدل ، فالام الانفراد فى العمل ؟
ولو هجرت المعمور وسكنت القفر
لما أطقت العيش منفردا فعهدك الحاضر : عهد الجماعة !
إذا أبيت الموت ولم تقصد الاضمحلال
فلا تندد بالاسلام قائلا : « فلتسقط الوحدة »
وإن ابتعدت عن الايمان فلا تترك الجماعة ،
وأنصت ، إن هناك حكما قاطعا لا يتغير:
«البعد عن الجماعة بعد عن الله» .
أى خير فى إعلاء كلمة الإلحاد الوضيع
وأى نفع فى تشتيت شمل الآحاد المضمحلة ؟

أنظر حولك لترى كيف اتحدت الأمم
وكيف تنتظم فى نهج مطرد ؟ فاعتبر ثم اعتبر!
أما إذا أردت أن تموت ذلة فمت غير أنك خسرت ،
لقد قضى عليك! نعم ولكن هل تظن أنك تملك لنفسك الحياة أو الموت؟
أنت فى قبضة الأيدى التى تمسك زمامك ،
وإن طلبت بعد ذلك حظك من العيش فتحمل :
السحق والأنين والانطراح على الأرض والزحف على وجهك ..
أما الموت فهو آخر سعادة يحظى بها المحكوم عليه بالفناء فى هذه الدنيا..
ولو قلت ألف مرة « أنا انسان» لن يؤمن لك انسان ولم يؤمن؟
كلا! لن تكون انسانا إلا إذا صنت حقك وحريتك ..
والحرية والحق يطلبان الينا أن نوحد العمل ،
ما قيمة العرق المتقطر من ثلاث نواص أو أربع فلتنضح العرق
ناصية الوطن بأسره ! .

استانبول — ١٣٣٤

هل كنت تعتقد ؟

« دخلت غرفتى وأغلقت الباب ورحت أبكى . لقد بكيت سحابة اليوم على غربة الاسلام واضمحلال المسلمين » سبيل الرشاد(١)

عطاء الله بهاء الدين
من مسلمى الشمال

لست واجدا فى طريقك وجوها تعرفها
ما أشد الغربة التى خيمت على الاسلام فى بلاده ؟
هل كنت تعتقد أن المعابد والعبادات أضحت مهملة كما يضيع اليتيم؟
وسوف تسمع هذا الأذان الباكى خلف جيل يائس ؟

(١) مجلة دينية تصدر فى تركيا

هل كنت تصدق أن المنابر أضحت شاغرة تنتظر الجماعة
وأنها لن ترى أمامها الا أعمدة أربعة وكومة ملقاة من الرخام ؟
هل كنت تعتقد أن تخر السقوف بما أحدثت لها من الضعف الشقوق ..
وتنمو الطحالب على العتبات وينسج العنكبوت بيوته فى المحراب ؟
هل كنت تعتقد أن هذا البنيان المرصوص المتصدع حجرا بعد حجر
سوف يصرخ صرخته الأخيرة تحت هذه القبب المتداعية ؟ ..
استمع الى الآفاق إنها لاتزال تعكس صدى الرعد
الذى انفجر من انهيار عالم سلخ أربعة عشر قرنا ،
وليس بجوارك وأمام عينك وفى جوك وبيئتك الا مأتم !.
أرهف نفسك كيف أمسى ألف عالم يخفق فى قلب مأتم واحد !
واحسرتاه ، أن تتناثر أنقاض التوحيد اليوم
فتملأ ذلك الاقليم الفياض الذى انبثق نور الأنبياء من أرضه !
تخاف الآلاف المؤلفة من المؤمنين أن ترفع صوتا
لدفع ما أخذ يستولى على الأرض من ألف منكر ،
وقد مسح من ذاكرتهم المسكينة الأمرَ بالمعروف
انقيادُهم المديد الى الظلم الدنىء ،
فزال الحياء فانتشرت الوقاحة !
ما أقبح الوجوه التى سقط عنها ستار الخجل الرقيق !
لا وفاء ولا حفاظ للعهد والأمانة لفظ بلا معنى ،
أما الكذب فرائج والخيانة متبعة والحق مجهول ،

والقلوب قد سلبت الرحمةَ والضمير وضيع والأمانى حقيرة!
والعيون ملؤها الازدراء بعباد الله .

إن العقول تقشعر يارب ، ما أفظع الانقلاب الذى حدث ؟
ضاع الدين والايمان فما الدين الا خراب ولا الايمان الا تراب !
انقرضت المفاخر ووئدت الضمائر
وليس للاستقلال كيان مادامت الأخلاق فى اضمحلال .

أما أنت يا أخى المسلم المسكين ! فكأنك تأمل مناخيرا ،
وقد وقعت فى اليأس وبكيت وأبكيت وألزمتنا الأنين ..

إن روحى جاشت بدموعك وهاجت وماجت ،
ولكن المأتم وحده ليس ينقذ الوطن المحاط بالنيران ،
فالأمة فى حاجة إلى النهضة وهى لا تستيقظ بالعبرات الخافتة .

فالسعى ولاشىء الاالسعى فليس ثمةسبيل آخر الاالجود بأرواحنا وأنفسنا!
فسوف تنزل الرحمة الموعودة حين ماينّدى الجهد الجباه ،
وكيف تخسر الأمة التى تقول : «إن من حق الفوز» ؟
رباه ، أليست هناك يد كريمة تمدها بروح من عندك ،
حتى تأخذ بيد الشرق الضال وتخرجه من الظلمات الى الفجر المنشود ؟ ..

استانبول - ١٣٣٤

الى ولدى محمد على (1)

إنك كنت عظيما فى يدى ياولدى ،
إنك كنت تقرأ نفسك فى صفحتى وأنا أقرأ نفسى فى صفحتك ،
وعندما يئس فكرى من إدراك علوك
سلكت مسلك الشعراء آملا أن أصل اليك بقلبى.
إن المثل الأعلى للشعر هو الألحان الأزلية فى الطبيعة ،
لكنى لم أسمع تلك الألحان ولم أسمعها غيرى ،
فهدمت عمرى المديد وبقيت كالبوم ،
جالسا على حطام خمس وأربعين سنة .
أما أنت فمضيت فى السمو إلى آفاق جديدة ،
وأما أنا فقد لبثت فى مكانى الخرب ولم أجد منفذا !
إن وطنى لم يسمع منى لحنا عذبا ،
إلا ما طرق سمعه من بعض أناتى .

استانبول – ١٣٣٤

(1) أحد تلامذة الشاعر

الى متى النزاع ؟

بسم الله الرحمن الرحيم
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

دع الألسنة تقول : أنا أنت ، وفرق وحدة الجماعة !
فيومئذ تقوم القيامة التى تفنى الأمم .
غص فى الماضى وطف بمحتشد تلك العهود الخوالى ،
فلن ترى لسنة الله تبديلا .
إن التاريخ وهو تلك الخربة الدامية التى نحفرها
تخبىء لحودا لاحد لها وآثارا لاعداد لها .

إن تلك الاحجار المحطمة على الأرض ،
إن هى إلا معان مهدمة لسطور جباه الامم !
فان استطعت جمع أشتاتها بيدك فسوف تسمع
العظة الجليلة التى تبدو من ثنايا تلك الالفاظ المبعثرة :
« كل حفرة أمة وكل هؤلاء الراقدين أمم ! »
وصروف الدهر دائرة تسوق الى هذه النهاية . .
أيها الزائر التائه لقد سمعت إذن :
« تعددت الاسباب والموت واحد »
ولكن لا أعرف أمن الصواب أن أشهد
الماضى والأمم الغابرة ؟ هيهات !
على جيل قد انطوى يومه على أحداث الدهور ؟
ما الجدوى من إضاعة وقته بضرب الأمثال له من التاريخ ؟
إنه لعبث أن تحس الاعماق تبتغى العبر ،
على حين تزخر الآفاق والأنفس بالآيات !
والذين يبصرون تلك الأسرار التى تتجلى فيها ،
يدركون أين روح البقاء للامم .
بيد أنى لا أعرف على أى شىء كنا نعتمد ونرجو الخير ،
نحن الذين أغمضنا عيوننا عن تلك الآيات ؟
هل اتعظ الشرق بما مر به من المواعظ والعبر ؟
لقد مرت به الكوارث تترى وأهله فى خيبة يعمهون
أيتها الأمة الميتة ، لقد غربت الشمس ألا تستيقظين ؟

ألا يزال دوى السيول وأنين الآفاق
الذى هز الأمم وهز حكوماتها يهدهدك لتستغرقى
فى سباتك العميق الذى انغمست فيه طوال القرون ؟
تلك الشعوب التى لا يحصى عديدها
لا تفتأ تدب ساعية فى طلب البقاء ،
هم اتحدوا لغاية واحدة وقاموا قومة واحد
رغم اختلافهم فى الجنس وفى اللغة
وفى الاقليم وفى الأخلاق وفى الحياة . .
وهذه أمة تفرقت لا يعدو عددها العشرات ،
ومانزاعها الامن الحرص على الجاه!
إلى متى النزاع ؟ ياللغفلة ويااللفضيحة!
قالوا : لقد ظفرنا بالحرية .. آمنا بالغيب ..
« واآسفاه ، قد خسرنا فى هذه اللعبة أيضا »
وسمينا الجماعة فرقة فانتهى ذلك الى التفرقة
وإلى هدم كيان الأمة القوية !
وخلقنا أسطورة (وطن التوران) (١)
وكم بذلنا المجهود لتحقيق هذا الحلم المنشود ؟
وكم خسرنا من البلاد فى هذا السبيل ؟
كفى ماضاع فأشفقوا على مابقى !..

استانبول - ١٣٣٤

---

(١) الوطن القومى التركى الاسطورى

لا يأس

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

أين منى نفحة من الأمل فيك ،
أتحسب أنه قد انطفى ؟ آه . . هل كان ينبغى لك أن تقضى عليه ؟
ما كان لفجر الحق الأزلى أن يمحى أيها الظالم !
فبعد قليل ترى ما أظلم أيام غدك !
وإن اعتقدت أنك تستطيع أن تمضى بدونه فمن المحال أن لاتخفق،
ولو انتظرت سنين فلن تبدو لك لمعة ضئيلة .
ولسوف تدوى أمواج الليالى فى حنايا رأسك ،
وكلما عدوت فسوف يصطدم خيالك بالدوامة الدائرة ،

وسوف يحيط الخسران بآفاقك فلن تستطيع أن تحطم سياجه
ولن تستطيع أن تتبين الشاطىء أهو أمامك أم وراءك ؟
يا من سافرت فى ليالى الحياة الطوال ووقفت فى الطريق شريدا ،
ليست نجاتك فى السموات ولا فى الأرض ، بل فى نفسك !
أشعل الروح التى استيقنت فناءها ،
فليرتفع الستار قليلا عما حولك !
قليلا . . لأنك كدت تختنق !
ويئست من النور الأزلى فبقيت مشدوها مبهوتا !
أيها القلب المؤمن الذى حار وهو يعبد الحق ،
إن صدرا واحدافقط يعيش بدون أمل وهو صدر الكافر !
أيجتمع اليأس والايمان ؟
حاشا لله! وقد علمت وأيقنت أنه ضرب من المحال ،
فلماذا إذن أذللت عنقك ووقفت مطرق الرأس ؟
ألا تشفق على ذريتك إن لم تشفق على نفسك ؟
ولدنا ولقنا فى المهد : « لا حياة لكم »
فوطئنا عتبة الدنيا ونحن نعدها مقبرة ،
لم نسمع صوتا واحدا يبشرنا بالحياة ،
وقام كل امرىء كأنه بومة تواصل النعيب على الوطن
وينفث روح اليأس القاتل ،
حتى خدر أبناء الجيل وتركهم لقى مضاعا!

أليست تفقد الأمة الشعور بالبقاء حين تدوى
الصرخة المنادية : « الأمة تضمحل » !
« الأمة سوف تضمحل » ، ماقتل الشباب الا هذه الصرخة !
قم فتحسس هذا الشباب هل به من حراك ؟
لو أطبقت على الآفاق آلاف الكوارث ،
لما انهارت هذه الدولة مادمنا تتجنب أن نقول : « إنها سوف تضمحل »
ما كانت لتنهار ، كلا ، لن تنهار ولن تسقط !
فاقتل أنت اليأس العاوى وأيقظ العزم ،
فحسبها نفخة من الايمان حتى تعود الى الحياة ،
فلينتعش أملك ، ماهذه الخيبة وما هذا الخسران ؟
فابدأ باسكات الآلام الماضية
وبث الأمل القوى فى أبنائك ،
وتوكل على الله واعتصم بحبل السعى واخضع للحكمة . .
هذا هو الطريق ولا أعرف صراطا مستقيما سواه .

استانبول - ١٣٣٥

التوكل بعد العزم

بسم الله الرحمن الرحيم

« فاذا عزمت فتوكل على الله »

« وأما التوكل، على الله فقد توكلنا عليه قروناً!

فاذا كنا قد وقعنا فى هذا الخسران وتردينا فى النار فليس ذلك إلا به!

ألم يكف تقديسنا لأسطورة طفولتنا ؟

ألم تبلغ الأمة رشدها بعد ؟

وإذا أردت أن يشرق النور فى الآفاق،

فأوقد على الماضى حتى يضىء ويحترق كله!

إنه من الحماقة إحياء الأفكار البالية ..

انظر إلى الدنيا وهى منطلقة يستحثها حب النهضة ،
حسبي ما سمعته من الأساطير إلى الآن ،
فلن أقنع بها اذهب فاقنع بها البله ! . . »
— إنك لم تتوكل على الله ، بل توكلت على الأوهام التى تعبدها ،
وإن تكون قد ترديت فى النار فليس ذلك إلا لأنك أهل لذاك !

لقدشل فالج إرادى عزيمتك
فبقيت كالمفلوج ولبثت فى ذلك ما شاء الله . .
وما دمت لا تجد ولا تجتهد ولا تجاهد
فمن المحال أن تعيش ولو تجرعت اكسير الحياة .
وان كان لك حق فى أن تحيا ،
فان ذلك الحق مقيد بقيد الواجب .
ذلك القيد الآلهى الذى تنقاد اليه بلا قيد
كل الأبعاد التى تخفق فى قلبها الأكوان . . .
ولو أنصفت قليلا لما تصاممت
عن نداء الواجب الذى ينبعث اليك من جوانح الخليقة ،
لقد حالفت النوم وزعمت أنك توكلت على الله ،
أهذا معنى التوكل أيها الغر الغافل ؟
لا تظن أن أجدادك انغمسوا فى رقدة القرون ،
وإلا فأنى لك هذا الوطن الذى ورثته عنهم ؟
إن آثار دمائهم الغزيرة فى القارات الثلاث تشهد

أن ذلك الجيل المجاهد لم يعرف الراحة يوما .
لو كان معنى التوكل هو البطالة
فهل كان ممكنا أن تعيش هذه الأمة بدينها الموروث فحسب ؟
كلا ! بل كان ينطفىء مشعل التوحيد فى الأرض منذ أمد بعيد ،
ولرفع القرآن الى قارىء السموات والأرض!
« ان العالم يعدو » أهذا كلام ؟ كان عليك أن تعدو معه ،
هيهات! أنت طرحت العزم كله وراءك
وما دمت قد تيقظت من رقادك الطويل الأجل ،
فتحرك قليلا إن لم تستطع أكثر من ذلك ! .
إن الذين يتبعونك يدوسونك كما تداس الجيفة ،
وإذن فلن تبعث حتى ينفخ فى الصور !
يدوسونك ولا ريب وعلام يبالون بك ؟
إسمع ما أقول : إن لم تتحرك فستمحى من الوجود !
من السفاهة أن تنام على مدرجة الطريق التى تعدو فيها الدنيا،
ومن أراد الدنيا وجب أن يسعى لها سعيها !
أحرص على المستقبل وكن مع الذين يسعون إليه
ولكن إياك أن تهدم الماضى فى هذا السبيل ،
وإنى أخشى أن ينقلب الهجوم على السلف هجوما على الخلف ؛
ى مستقبل لأمة تهدم ماضيها ؟
تيقظ أيها المسافر ! والا طلع عليك الصبح ،
وإذا أنت بقفر جديب لا نور فيه ولا روضة !

استانبول — ١٣٣٥

الى سليمان نظيف(١)

« ما دامت روحي مؤيدة بهـذا الإيمان »
« فسوف تنتظر ثلثمائة بل أربعمائة بل خمسمائة »
مالطة — سليمان نظيف

هل تنتظر خمسمائة سنة وكيف تستطيع ذلك ؟
وهل كتب على روحك أن تعانى هذا الخسران قروناً ؟
وكأنى قصدت الدهشة الماثلة أمامى ،
فعبرت عنها بالخسران . .

(١) كاتب وشاعر تركي نفاه الانجليز الى جزيرة مالطة على أثر احتلالهم الآستانة فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

إن ألفاظ المعاجم تنفد ولا تكفى
لشرح الظلمات المحتشدة احتشاد يوم الحشر بآفاقى !
وقد مضت القرون على انتظارنا ولم يولد الغد
حسبنا ما قاسينا من هذه الليلة الليلاء !..
كلما تلظى صدرى آملا أن تهب نفحة من الرحمة ،
ألفيت نار الجحيم تهبط من السماء .
ولكن سيل النيران سوف ينضب
وسوف يهوى إلينا نور لا نار !
أيها الصديق الوحيد لهذا الوطن المهجور فى وقت الشدائد ،
لقد أسمعت بيراعك الرهيب
آلام الأمة للعالم فى أخطر الأيام ،
نحن نجل اسمك فهل لك أن تستمع إلىّ ؟
كيف وقعت فى اليأس أنت الذى
كنت بالأمس التمثال الحى للعزم والأمل ؟
هل تطول أيام الذلة والمسكنة المضروبة علينا ،
ما دامت الأمة تحملتها منذ أمد بعيد ؟
ألم يقدر لهذا العالم الإسلامى إلا الأسر ؟
أفنسيت ذلك الماضى المهيب ؟
كان عليك أن تسمع صوت قلبك وإيمانك
لا أن يتزلزل أملك مما حولك .
إن قلت ، وقد رماك غيظ الغرب الأبدى فى اليأس :

« لن يسمح ذلك الكابوس للإسلام بالاستيقاظ »
فما دام وعد الله لنا حقا ،
فسوف يشرق فجر الشرق الأزلى قريبا .
هل يصرع هذا القدر العظيم من الشهداء ،
وتتبخر الدماء كالبحر على صدر الدنيا ،
ولا يحرق هذا الطوفان وهذا الدخان العرش الإلهى ،
ولا ترق منهما لجة الرحمة الإلهية ؟
وإن كان العصيان يرجع إلينا ،
فأعوذ بالله أن أظن أن عدله يقف من ذلك موقف المتفرج !
أجل ! . إن التفرقة شتتت شمل الإسلام
وقتل الأخ أخاه عن قصد أو على غير هدى ،
ذهبت الروح وذهب الوطن وانقض السكين على الدين . .
ولكن سرعان ما اهتز ونهض
فانظر اليوم إن الروح والدم له
والدنيا والدين والمجد له !
وتلك الوحدة المنفعمة المشتتة ربطتها الأخوة
وتوثقت عرى تلك الرابطة الأزلية .
ولو هاجم الإسلام أربعون جيشا من الصليبيين ،
فكن مطمئنا ، إن أربعمائة مليون من المحال أن يؤسروا ! . .

أنقرة — ١٣٣٧

بلبل

— إلى ولدنا بصرى بك —

لقد كنت مساء الأمس ساخطا على العالم مضطربا غاية الاضطراب ،
فانتهى بى الأمر أن خرجت من البلدة أتنزه ونزلت على قرية ،
وكانت طلائع الليل قد زحفت على الأرض حينما أردت الفرار من المدينة
ثم أطبق على الوادى ظلام حالك مدهش ،
لا نور ولا عابر ولا صوت والبرية فى ذهول صامت . .
ولا تسمع نأمة تفزع هذا السكون
وتراءت تلك اللحظة كأنها تمثل حالة الإنسانية ،
فرجت إلى الماضى وعرجت فى مراقيه وما أكثر ما أمضتنى سوالف الذكريات !

وعندما تدفقت ذكريات متتالية وجاشت فى محيط أفكارى ،
إذا صرخة مديدة فارت من صدر الظلام
وهيجت ذلك الوجد الغارق فى لجج السكون ،
وإذا الأنين يتدفق من جنبات الوادى
رباه ! ما أحر تلك النغمات وما أكثر ضرام هذه الأنفاس تموجا !..
كانت الأشجار والأحجار قد اقشعرت كأنما قد نفخ فى الصور !..
لك صديق ولك وكر ولك الربيع الذى تنتظره
ما خطبك يابلبل حتى أقمت القيامة ؟ . .
وقد جلست على ذلك العرش الزمردى وشيدت فيه ملكا سماويا !
ولو ديست أوطان العالم بأسرها فلن يدرك البؤس وطنك !
إنك اليوم فى واد أخضر وغدا فى بستان ورد أحمر ..
تتنزه وأهلك فى فرح وروحك فى سرور ودنياك فى بهجة ،
وإذا نزعت نفسك الطامحة إلى جو لا خريف فيه،
فما الآفاق والأبعاد المطلقة إلا طوع جناحك
فان جناحك لا يعرف القيد ولا تسعك الأبعاد إذا علوت الجو !
وإن حياتك لأعظم غاية تتخيلها الأحرار فى الحياة !
إذن فما الذى أظلم أيامك المشرقة وألقاها فى الحداد ؟
وما الذى أجاش البحار فى صدرك وصدرك قطرة ؟ . .
كلا ! . . لا ينبغى لك الحداد . . فدعه لى وحدى !
ولقد مضت القرون ولم تر آفاق النور ،
ليست السلوى من نصيبى فان الخريف يبكى فى ربيعى !

ما أنا اليوم إلا مشرد عديم الدار في قلب وطني !
يالها من خسارة! .. أنا ابن الشرق الجبان
وقد تركت مثوى أجدادي يدوسه الغرب من أقصاه إلى أقصاه!
وقد هاجت أفكاري حينما مرت بها
أشباح أوطان صلاح الدين ومحمد الفاتح
يالها من مذلة ! . . إن الناقوس يرن على ضريح (عثمان)
وقد سكت الأذان ومحى ذكر الله من الفضاء ! . .
يالها من فجيعة، لقد أضحى أمجد ماض سرابا!
وقد استحالت تلك السطوة والصولة إلى الدمار والبوار !
ولم يبق من مسجد السلطان بايزيد (البرق) إلا قبة متداعية !
وقد ديس ضريح السلطان أورخان بأشنع أهانة . .
يالها من خيبة وقد تصدع موطن التوحيد حجرا بعد حجر !
فآلاف الآلاف من إخوان الدين يهيمون على وجوههم من غير مأوى،
إن بيوتاً قد تهدمت وتقلبت أسر على الارض في عذاب الهون ! . .
وأجساد صرعى لا عديد لها قطعت تقطيعا . . . .
وبعد هذا كله يجول في حرم الإسلام من ليس من أهله . .
إلا فاصمت أيها البلبل، المأتم ليس لك ، بل هو لي وحدي !

أنقرة — ١٣٣٧

ليــــلى

أنادى: «ألا تؤوينى فى حضنك أيها التراب ؟» ، وإذا به يصمت،
فارتد لانتظار المدد من السموات هيهات... أن يبلغ نظرى ذلك العلو ![1]
وقد ضقت ذرعا بنفسى فان الزمن والمكان خاليان كل الخلو لا أنيس فيهما،
لا رفيق فى الطريق المهجور ، ليس هناك من نجم واحد فى الظلمات . .
وقد انمحت الجهات فليس أمامك سوى سدود الليالى السرمدية ،
وتقع جبهتك التائهة فى حفرة الخسران وإذا ارتفت اصطدمت باليأس،

---

(١) للاتراك مثل يضربونه عندما يضيقون ذرعا فيقولون « ان الأرض جامدة والسماء عالية » .

إن الواحات والقفار خاليات من قبس من النار والأودية صامتة . .
فاجهد جهدك باحثا فى الفضاء وما من مجيب لصرختك إلا الجان !
إن هذه القبة الخربة مهجورة منذ أمد بعيد .. ليس فيها صدى ولا نور .
رباه !. . ألا يشرق على الآفاق نور ليدنى من الغد ؟
ما أطول هذه الليلة كيف مدت رواقها على هذا الشرق ؟
لقد مضت الأجيال وتصرمت العهود ولم يزل
كابوسها يسحق جماهير المؤمنين
وتغرق دوامتها فى كل دورة من دوراتها ثروات لا تحصى!..
إن وطن الإسلام الذى تهان كرامته كل يوم لا يزال
ينتظر الغد الموعود وقد مضت عليه القرون ..
لا جاء ذلك الغد ، أريد ولست أبدا إشراقه إذا كان هو غد الحشر !..
هذا وإذا كان المؤمنون قد بشروا بكيان قوى
فما لهذه الحجب المتضاعفة لا ترفع عن سبيلهم ؟
وما لهذه الافاق لا تنشر نورا وضياء ؟
ذلك النور الذى يحمل أملا لا يعرف الانطفاء ،
وإشراقه قد جعل الشرق الذى تخاله
متندما على وجوده وجعل هلاكه محتوما ، يعشق
سحر بريقه ويندفع كالمجنون من هوى إلى هوى !..
كلا !. للشرق ـ لذلك المجنون البائس المنكر ذاته .
ليلى واحدة فى الدنيا كلها : هى مستقبل الإسلام !
ولا يعرف سواها وقد تفانى فى حبها ،

فإنه مستغرق اليوم فى ذكرها وقد يغرق غدا فى ذكراها ..
تعالى ياليلى أيتها الحبيبة التى هى إلى النفس أقرب من الروح.. لاتبتعدى!
لا تتجنى على المجنون الذى أنكر لك حياته غير مرة!
تأملى أعاظم أبناء الشرق فى البطولة
فى سبيل من ضحوا بأرواحهم وقطعوا تقطيعا!
ومن الذى أشعل الحرائق فى هذه الأوطان المستحيلة رمادا ،
وعلى من تقع تبعة هذه الملايين من اليتامى والأرامل
ومصرع الجماهير الذين ضحوا بأنفسهم ؟ ..
فى سبيل من ياليلى ، تلك المذابح والسجون ؟..
ففداء لك تلك الضحايا وتلك الدماء !
حسب مجنونك أن تتراءى له ولو مرة قبل أن يستولى عليه القنوط من لقائك!
لم يطير جناحك فى العلو السامق ولا يحوم فى سماء هذه الخليقة ؟
وإن لم يكن هذا التراب ما يمكن به إعزازك ،
فما الشفق إلا بساط طريقك وما الفجر إلا مصباحك ،
وما هلالى إلا خيمتك التى شيدت فى قلب السموات ،
وما الأذان إلا نشيدك تئن به الأرجاء رهبة وخشوعا ،
وما الأعلام والقبب إلا جهاز عرسك الذى نزل من عند الله ،
وما الجماعات إلا عبيدك وما الكعبة إلا خدرك! . تعالى ياليلى ،
تعالى أيتها الحبيبة القريبة إلى النفس أكثر من الروح ، لقد لبثت غائبة إلى الان!
حسبنا هذا الدلال ياليلى! فانزلى من سماء الأزل ،
حتى ينزل من قبل الرحمن ربيع خالد على هذا الوطن المحترق ! ..

أنقرة — ١٣٣٨

مع الفرعون وجها لوجه

(إلى فخر النساء خديجة عباس حليم)

مالنا لا ننشر الشراع ونجتاز النهر
لكى نصل إلى الشاطىء المقابل ؟ ..
الشمس طفل لا يزعج والماء راكد ..
هيا بنا كيلا يدركنا المساء إن الوقت الراهن أنسب للسفر ،
فلتعمل المجاذيف فانا نريد الرحيل توا .
ولكن النيل المبارك هذا ، يا له من قبر لا يحس !
وقد غمرت أمواجه الشواطىء وغيبتها ،
ليته قد شعر بما جنته يداه .. كلا ! . . بل راقه صنيعه .
وقد التقط صورة السماء فى قراره
ونام عليها فى طمأنينة ملء جفنيه ! ..
ذلك (الكرنك) المهيب الذى يرجع قدمه إلى ماقبل سبعين قرنا ،
والذى لم تزل ظلاله تقع على عوالم غابرة ،
ذلك الخسران الذى تراكم على نواص نادية ودامية ..

أى: عمران (طيبة) هذا الذى تمتد فى التاريخ صفحاته كالأمواج ،
تلك الآثار التى ما زالت تحالف السرمدية
والتى تجاوب صداها فى بعيد الأرجاء ،

كيف درست اليوم ولم يخلع عنها البلى فخامة أعمدتها الحزينة ؟
انظروا إلى النيل وانظروا ثم اعتبروا ! .

هل وصلنا إلى الشاطىء ؟ فلنتزل إلى البر
قبل أن يبتعد الزورق عن مواطىء الأقدام..
والأرض هنا ندية لم تمهدها أقدام السابلة ،

فلا بد من الوصول إلى خمائل النخيل تلك لادراك نهاية الرحلة ،
ولكن يا لها من خيبة أمل ، وقد واجهنا
بحرا من الرمل بعد اجتياز الواحة..
علينا أن نمضى ولو غمرنا الماء تارة ونجونا تارة أخرى.
أجل بدأت تظهر هنا وهناك جزر جميلة . .
هيهات ، أن يكون العمران وراء هذا القفر
الذى يمتمد ويمتد إلى ما لا نهاية . .
وقد مضينا وضاق الوادى وقاربنا الغاية ،
ثم بدا شبح الآثار الخربة رويدا رويدا . .
إن هى إلا أعمدة مهشمة ونصب
سقطت على الأرض هنا وهناك وانتثرت ،

وقد بدت صفوف المعابد التى غطت أرض الوطن ،
ثم بدا معبود تلك المعابد وقطع إربا إربا !
وقد قامت عن يمينه أمواج من مبان خربة تمتد بلا نهاية ،
وقام عن يساره جدار المعبد الوحيد ،
وقد مثل بالتماثيل أمامه تمثيلا .
أما فيما يواجه المعبد فرؤس بلا أنف وخصور بلا ظهور ،
وقد غرقت هناك مئات من أجساد الشياطين فى بحر الرمال !
وقد مزقت الأرض هنا آلاف من الرمم تريد الخروج منها ،
وقد ذهبت أدراج الرياح أنقاض الآمال الخربة هناك ،
وهنا يدوس النظر قصورا متهدمة بين الفينة والفينة ،
إن هى إلا أرض نبت فيها الفساد
تحشر فى طياتها الأجساد حتى يحين يوم الحشر !
وقد تضاءلت سعة الوادى فاستحالت مضيقا ،
والشمس الآن فارقتها الطفولة ولكن لم تفارقها عربدة الطفولة
وهى لا تطاق حتى فى أيام دلالها هذه
كلما حاولت أن تشعل النار فى الجو ،
ألا فانظروا إلى هذه الأرض ما أشد تداعيها !؟
وقد حفروها هنا وهناك وأخرجوا الأجيال التى استحالت ترابا ،
فالتهموا قبورها ولم يذروا مابها من الجيف فنهبوها !..
رحم الله النباش الأول! اكان آدميا ، أما هؤلاء اللصوص فوحوش !

وإذا بالصحارى محفورة وإذا حفر تمتد من اليمين إلى اليسار ،
إن جيشا من السواعد لا تفتأ تبحث عن المقابر ،
وأنقاض من الخرق البالية تنجر صفوفا .
وعلى أمل أن تنكشف عن مومياء
إنهم يمزقون الخرق ويغربلون الثرى ويبعثرون الرماد والعظام وكل هذه الأكوام !
ما هذا الجشع البشرى الذى يعبث بالعجز البشرى ؟
ولقد انحرفت طريقنا قليلا نحو الجنوب
والشمس أكثر إزعاجا وهى فى أشدها ،
فما أن يلمح لهيبها قطرة من الظل
حتى يسرع خطاه فى الجو
لا يفتأ يمزق ما يصادفه من مظلة أو ستار !..
كما يفعل الآن فما من جهة إلا قطعها وجعلها عارية .
وأما الطامة الكبرى فهذا الطريق المتعرج الذى لو استطال
لما استطعنا أن نمضى فى المسير ،
فهذا الأتون المتوقد يحمل مجرافه
ويقذف علينا الشمس التى استحالت رمادا !
كلا ، لن يطول الطريق لقد انتهى أى انتهاء !
الا فتعالوا واملأوا أبصاركم بهذا المنظر العجيب !
وقد أسدل فجأة على الآفاق ستار من النار
حيث تدور الطريق وتتجه نحو الغرب ..

يا لها من رهبة إلهية ويا لها من سلطنة وياله من جلال!..
إن الأرض بأدوارها المتغيرة تجثو على أعتابها،
وهذا المنظر قد نسج من فجر الأزل ،
أو هو لهيب الغروب قد تحجر !
فقطب هذا الهرم (١) السرمدى جبينه فى الفضاء،
ومضى فى وعيده للآمال الحريصة.
أجل، إن هذا الخطيب الذى يستند على الأطلال الخربة ،
إن هو إلا سكوت مهيب غرق فى التفكير ،
ما من خطب تلق، كلا .. ولا منبر!
لأنه أسمى من ذلك كله .. إنه لقبر عميق!
إن أضلاع هذه الصخرة الحمراء قد حفرت من نواح شتى ،
وهناك أسماء مصفوفة قرأناها عفوا :
(آمنوفيس الثانى)! حسن.. فلندخل ونر :
إن الضوء كان ضئيلا على العتبة وقد شمل الظلام الداخل
ولكن الأمد لم يطل إذ رفع الستار فجأة ،
هو الدليل ولا ريب ، قد سلط النور من الخلف
إن المشى مع الضوء ليسير وإن كان المسلك عسيرا ،
أما الذى لا يحتمل فهو الحر المزعج المنبعث من الداخل ،
ولكن ما الحيلة ؟ لابد من النزول ما دمنا قد دخلنا غير مبالين..

---

(١) هو جبل أحمر المنظر وملؤه مقابر فرعون يقع عند انتهاء وادى الملوك بالأقصر. فيجب أن لا تظن آية الطبيعة هذه أحد الأهرام التى بجوار القاهرة.

فالأرض تنحدر انحدارا ،
على أن النجاة من العثار ليست غير متيسرة ..
فعند كل خطوة درجة قد حفرت فى الصخرة ،
فانطلقنا وإذا بجسر امتد أمامنا ،
والثغرة تنتظرنا فتوكلنا على الله ،
وقلنا : بسم الله مجراها ومرساها .. ومضينا ،
ولكن الله سلم !.. إذ الدليل يقول :
إن بئرا مخوفا ملؤه الظلمات
قد كمن تحت هذا الجسر المعلق ،
إن من ينبش قبر آمنوفيس
ليسرق عظامه المفخمة
ويحاول كشف أسرار الملك ،
يطأ قدمه هذا الشرك
ويسقط فى قرار الجحيم !..
هلم نمض سريعا فإن من دخله ليس آمنا !
وقد أسرعنا الخطى نحو درجات السلم
وعولنا على الهرب إلى أسفل
هذه القافلة بمشاعلها كأنها موكب من النجوم ،
اصطفت على طول الممر وهى تبرق كأنها
كومة من يراع حبست فى خلية ،
تحاول خرق هذه الليلة السرمدية حتى تتخلص منها !

وهذه الرموز المعبرة تتوالى وتتكرر بلا نهاية
فى كل مكان من السقوف والجدران
والألوان والصور قد تلفعت بظلام . .
لمن تمثل هذه الرواية التى تعرض فى الظلام ؟ ...

بينا نحن نتساءل هكذا وقد قطعنا شوطا بعيدا فى الممر
وساقتنا الطريق الآن إلى مكان ذى أعمدة ،
وإذا بنا قد وصلنا إلى حريم فرعون الخاص ،
حذار أن نحدث ضجيجا لكيلا يفزع .
أماهذا المسرح الماثل بصدر الجبل فرائع !
إن موجات زرقاء ذات نجوم كالسماء البهيجة
غمرت السقف وظلت تلمع . .
وإن أطراف الجدران ذات اليمين وذات الشمال ،
مرشدة إلى مهالك الموت
ملأى بألف أسطورة فى صورة جيوش من الجن .
كما أن الأعمدة تقص روايات مسهبة ،
روايات ذات فصول طويلة .

حسن ولكن أين هو ؟ وإذا بلحده المزخرف
الأحمر اللامع قد ظهر فجأة .
كان مكشوفا ، وقد حل محل الغطاء زجاج كثيف

ولما فتح النور ابن القرن العشرين ،
جاشت سيول من الأضواء ،
فتراءى شبحه البائس المشلول .
يا لها من آيات العدالة الإلهية ،
أن تنظر إلى (أمنوفيس الثالث) كما تنظر إلى جيفة !
هذا الفرعون الذى كان المرء يخشى مجاورته ،
هذا الفرعون الذى تحوى القصور والأعمدة والنصب
تاريخه وتلقنه للناس ،
هذا الفرعون الذى إن أحنى رأسه لحق
فإنما يحنيه لحق بقائه وحق نفسه ،
هذا الفرعون الذى إذا ما خطر
بعقله الثمل تخليد خيال ظله ،
فإن راحة الرعية لا يحسب لها حساب ،
هذا الفرعون الذى ظل كابوسه على الأرض كالجحيم ،
قبل أن يقع جسمه المشئوم فى جهنم ،
هذا الفرعون الذى طاف البشر بتمثاله
راكعا وخاشعا تحت وطأة رهبته ،
هذا الفرعون ، هذا القضاء الخفى ، هذه الكارثة المتحجبة ،
هذا الفرعون الذى نودى (يا ربنا الأعلى . .)
ياله من انتقام إلهى وياله من خسران سرمدى !

يجثو تحت أقدام المارة بجسمه البالى العارى ،
ضاع كفنه ولم يبق له إلا لحمه ،
وجسده عار مطروح ولا يزال تحنيطه باقيا لم يتحلل !..

أهذا هو الوجه الذى كانت الأرض ترتعد له ؟
أضحك هذا الوجه هو الذى كان يحدث أنينا فى الآفاق ؟
كلا ، لم يعد وجها الآن بل أضحى سجلا للعذاب !
إن أساريره كلها متداعية لا تعبر إلا عن الخراب .
والعيون التى كانت تنشر الرعد والبرق ليست إلا هاوية مظلمة !
إن الرياح تعصف الآن فى مكان تلك الرعود ،
بينما الموت يغوص فى منحدرات الأصداغ ،
وخسران مر شديد ينعقد على الشفاه .
ولا أدرى فيم تفكر تلك اللحية المتهافتة ؟
والجبين قد خيم عليه اضطراب مهيب ،
وقد تحولت البطن والحجر واليد والرجل إلى جذوع محترقة .
إنها سوف تستحيل قريبا رمادا وتنتثر .
هل هذه الجيفة التى أراها هى مصيرك ؟
هل فى سبيلها جعل الألوف المؤلفة من الأرواح تئن ؟
ما كان أعظم شؤمك الذى استولى على الجو ؟
فحياتك كانت كارثة كما أمسى موتك مصيبة !

أجل !. ما كنت تستطيع أن تقيم هذه الأعمدة ،
لو لم يفض العرق غزيرا من تلك الجباه البريئة .
إن تماثيلك نبتت فى البلاد كالأعشاب السامة ،
فهذا الوادى إنما سقى بدماء البشر .
كأن جوف الأرض لم يتسع لجسدك ،
فلم تستطع أن تواريه فى التراب ؟
هل كان يجدر أن تجعل الرعية تثقب الجبال
بأظافرها وأسنانها لإنشاء قصور توضع فيها جيفة ،؟
ماسر تكريم هذه الجيفة ؟
ولِمَ لم تنل روحك هذا الاعزاز والانعام ؟
ولو أردت الخلود فى الدنيا لاستطعت ،
ولكن هل ضحيت بعض أنفاس حياتك
فى سبيل الحق وأبقيت ذكرى عزيزة ،
خالدة تحت هذه القبة الزرقاء ؟
تلك العيون الراعدة التى كانت تنثر الموت على الآفاق
هل انحنت ونظرت إلى الخلق الذين كانوا يلفظون أنفاسهم فى التراب ؟
هل أرويت القلوب الظامئة بذكرى رحمتك
مسكناً لوم هذا القلب الغليظ القاسى ؟
وحياتك السافلة المليئة بالأوحال والدم
هل تذكرها قلبك يوما ونظرتَ إليها

واستحييت منها ؟ وهل فاض عرقك الذى يغسل عنها الأوحال ؟
فان لم يجد نفعا فهل أغرقتها فى سيل الندم ؟
كلا ما أبعد لون الحياء عن ذلك الوجه ؟
وقد أغمضت جفونك دون أن تبتل مآقيها بالدمع
واحتمت بالتحنيط جيفتك التى هى آيتك الوحيدة !
ولكن هل استطاعت روحك الشريدة أن تلوذ بالغفران ؟

لو مزقتُ الستار الأول المسدول على حياتك
فسوف تسمع آذانى صوت الأجساد العارية ،
تلك الأجساد التى كان يعلوها الدخان
من ضرب سياطك تحت لهيب الشمس !
إن التعب كان حقهم المجهول
تلك الأجساد التى لم يكن لها عندك حق إلا التمزيق !

إنى أتخيل عهدك الفخم الآن
كما فار شبحه من الرمال قبل ثوان !
ما من أحد من رعيتك لم يلق العذابْ :
فما الصراخ الذى لا ينقطع إلا أنين الأيتام !
ما أكثر البيوت التى خربتها قبل خرابك
وما أكثر المنازل التى داستها هذه الصخرة التى شيدتها !
لو مَسَستُ هذا الجدار المائل لبكى وهو لا يستطيع أن يقول !

كم من دم جرى فى هذه الحفرة
وكيف يستطيع أن يروى وهو شريكك فى الخسران !.

أحقا إله مصر العظيمة العارى ،
كان كل هذا الضجيج فى بناء هيكلك لتخليد ذكراك ؟
وإذا كان الأمر كذلك فقد ضاع سدى !..
أجل ، إنه لمن حق البشر أن يتمنوا الخلود ،
ولكن ليس يطلب الخلود من حجر ولا جيفة !..

حلوان - ١٣٣٥

انصب الشهداء

أيها العابر ! إن هؤلاء الرجال الذين لفظوا أرواحهم
لأجل هذه الأرض قد ناموا فى دمائهم الحمراء ..
إنهم من عباد الله الأولياء لن تسعهم الأحجار والأضرحة ،
ارتدوا رداء الغفران ولا يطلبون إلا الفاتحة !..

حلوان — ١٣٤٠

الوحـــدة

قال حذيفة العدوى : « حميت المعركة
فى حرب اليرموك وكان يوما شديد الحر ،
وكاد يهدأ وطيس القتال وقت العصر
فألقيت السلاح وبادرت الى الماء
أحمله لامداد المجاهدين
ممن جرحوا جروحا خطيرة فى النواحى البعيدة ..
يالها من معركة !.. كان صدر الارض بأسره مضرجا بالدم ،
سرت أحدث نفسى : ما أكثر هؤلاء الشهداء الذين رقدوا
وتفتحت قلوبهم لرحمة الله ! أمامنهم من غاز لا يزال على قيد الحياة؟
إذا بى أسمع أنينا عميقاً ولكن من أين هذا الصوت ؟

إن الصدور التى تحسستها قد فارقت الحياة ..
وإذا الجريح الذى يئن هو ابن عمى !
قلت هذا الماء ، فهل لك فى شىء منه ؟
كاد يقول لى هات . وإذا بى أسمع
أنينا من الخلف ، فرأيت فى عينه الرحمة
وكأنها تقول : «إذهب اليه» مشيراً إلى مصدر الأنين !
ألححت عليه فلم يشرب وعبثا كان اصرارى ،
فاسرعت نحو الصوت الذى ارتفع فإذا به : هشام بن العاص !
مارأى ظلى حتى انقطع أنينه فجأة ،
كان نظر المسكين يدور طالبا ماء ،
انحنيت لأسقيه وإذا بآهة ثالثة قصيرة
تنطلق بحشرجة من الأمام بغتة ،
هذا هشام يشير إلىّ بحاجبيه
وهو بين الحياة والموت ، قائلا: لاأريد إذهب واسق المستغيث !
بحثت برهة عن المحتضر الذى يتأوه
وأدركته أواه ! لقد شخص نظره الى بارئه . .
قلت ليتنى أدركت هشاما حيا فرجعت
وإذا الموت كان أسرع منى الى فريسته ،
لم يبق لى أمل الا فى ابن عمى
وعدوت فلما بلغته كان هو أيضاً بطلا شهيدا ! . »

إن الشرق الذى قد ملىء ماضى كاله بالمفاخر ،
يالها من قرحة الآن لا تلتئم .يارب !
كأن عقد الايمان قد انتثرت حباته ،
لتترنح على الأرض متقطعة ومتداعية ،
هل كانت الوحدة شعاره ؟ انظروا الآن
كل قطعة منها أصبحت لعبة فى يد الأيام !..
أيتها الأمة الضالة بسم التفرقة !
بينا وعد تاريخك من الأزل بالخلود ،
فهل لا تزالين فى الطريق التى تؤدى الى الزوال ؟
لا حول ولا قوة الا بالله !..

حلوان — ١٢ يناير ١٩٤٠

أَلليل

إلى أستاذي الفيلسوف الحكيم فريد بك

كل نجومك غارقة فى التهليل ، فأخذتنى الدهشة من أمرها ،
صنعك هذا ، ياله من معبد ! .. ليست قبتك الزرقاء الاسجدة سرمدية فيه !
وقد خرت هذه العوالم ساجدة بين يديك وهى تقشعر خشية منك ،
وتقف الملائكة على أعتاب عرشك فى خشوع كأنهم ناكسو الرؤس ..
رباه ، ما أكثر ألوان العبودية التى يموج بها الكون ! ..
الأضواء والظلال والظلام كلها مفعم وجدا واستغراقا !
كلما أيقظ الأكوان هذا التسبيح المستغرق العميق بدورانه
أنت لروحى المضطربة أوتار إيمانها البالية ،
بالية لأن صيحتى الضائعة لم ترتفع بعد ،
ياليت أنوارك المحتشدة كالمحشر تفسح السبيل لها يارب !

أجل ! فى البعد المطلق عوالم جائشة لا تحصى ،
بينما ظلى المسكين يتخبط هاهنا فى قطرة من تراب !..
صيحات الخلائق التى تسمعها خالصة لاريب فيها ،
فما لدموعى ترتد خائبة عن السرمدية ؟

يقولون إن هذه العوالم قد انفصلت عن شمسك ،
رب كيف وهى لا تستقر لحظة
يستقر ظلى وقد أنفصل منك ؟
لم ينفصل من الشموس بل منك أنت يا إلهى !
ما زلت أذكر اللحظات التى كنت قضيتها دهشا فى مجلس أنسك
وهذه اللحظات كلما ذكرتها قام ألف محشر فى رأسى !..
ثم تنقبت بالكبرياء فاحتجبت عن نظرى ،
رباه ، بينما كانت بروق تجلياتك تومض من قبلتى !
فما بال جبهتى الآن تنتقل من محراب إلى محراب تشيعها الخيبة والخسران؟
فلا سبيل إلى ساوى بالغد الموعود فيه بالغفران !
وقد انطرحت سجداتى تئن على الأرض وهى تعرج اليك
ومن السموات تصل تهاليل أمواج المحيطات ،
ألا فليسكت الظلام والأضواء والأظلال يارباه !
ولتدو فى جنبات العالم سجداتى وآهاتى ..

قد مضت الأعمار وأنت لا تتجلى فالى أيها المعبود الوحيد !
الى أيها الغائب الوحيد ، إلى ايها الموجود الوحيد !

أو فليزل ذلك الهجران الذى يجعل هذه الوحدة موحشة ،
أو بنفخة واحدة منك فلينثر الاطمئنان على هذا القلب الخاسر !..
كلا ! لن ينتهى يأس روحى لا بالاطمئنان ولا بالإيمان ،
لا أريد الآفاق ولا الأنفس إذ هما خلاء مطلق بدونك !
أنا مجنونك وأنت وحدك ليلاى التى أعبدها !..
ولا أزال ثملا بنظرة منك فتنتنى سقيتنيها من الأزل(١)
إلىّ أيها الساقى السرمدى نحتفل بذكرى ميثاق «ألست بربكم» !
ناولنى حسوة أو جرعة ولكن من نفس الخمر التى كنت سقيتنى....
وحينما يئن وحى ذلك الشراب الإلهى فى كل ذراتى ،
فلتسكت أصوات الطبيعة كلها برهة وتترك المجال لأنينى !..
إلىّ ياسيد الأكوان ، إلىّ ياليلى وجدانى !
ولتكن نهايتى ـ إن كانت هناك نهاية ـ فى صدرك أنت حيث الذكرى !..

حلوان — ١٣٤١

---

(١) وقد سقى نظر الحبيبة روحى من الأزل بترحيب فثملت ولم أشعر بترحيب سواها
احمد پاشا

هجران

إن كان هذا معبدا فلا يليق أن يبقى عاريا مظلما ،
القادم هو المعبود فأسرع واقترض وزوده بالنور والرياش ..

فما كان منى إلا أن اقترضت من الجيران قنديلا وسجادة
وقلت : « تعال ياضيفى منزلك السعيد فى انتظار قدومك! »

خاب ظنى فلم تمر ببابى ولا مرة واحدة ! . .

رباه ! أخليت غرفتى فعادت كما كانت عارية ،
لا قنديل يضىء فى أرجائها ولا سجادة فى محرابها ! ..
هى من التراب الذى تعرفه منذ الأزل لاحياة فيه ،
إنما هى سجداتى المنتثرة التى تنتظر قدوم الضيف .

أما هذه الشعلة العارية فهى إيمان صدرى اللا نهائى . .
يا إلهى ألم يكف حرمانى هذا جزاء لخطيئتى ؟
إنه قد أشرقت الشموس وطلعت الأقمار ، أما أنا فما زلت خرابا!
إن رعدك يخطف الأبصار ويمزق الآفاق ،
ولكن روحى ما زالت مشتاقة بآلاف الأشواق إلى قطرة من الغيث . .
ألا يا أيتها الحسناء التى كلما تلألأ ابتسامك انفجرت من الأرض والسموات فنون من الشفق والخزامى والورد . .
هلا ابتسمت لهذا المنزل اليتيم ؟ إنه لا يزال يتيمك !
إن كل ما أنزلت عليه لم يكن إلا ناراً فأنزلى عليه نوراً ولو يوما واحداً !
كلا ! لا أطلب ابتساما حسبى أن أنجو من سلطان غضبك ،
كل سجداتى التى بهتت من الخشية تزدهر بالآمال !

رباه ! ضاق صدرى أين نورك وأين رحمتك ؟
كيف يبقى هجرانك مشعلا نار الجحيم على آفاق ؟
أجل ، كنت غافلا أما يغفل الإنسان ؟
ألم يطهرنى ما سكبت من دموعى طوال عمرى ؟
تعال ، ليس هنا سواك والمنزل لك !
هذا الدخان فى حجرتى هو إيمانى وهذه الآثار المنتشرة هى سجداتى !
لم يبق فى عرفانى ولا وجدانى يا رباه ،
أى أثر من نفحات السجادة والقنديل !

يا إلهى إن أرجاء صدرى تدوى بذكراك !
ماذا يصنع عابدك فى هذا الكون المتهدم الموحش ؟
وما معنى المحراب والركوع والخشوع والوجد ،
ونسك التعبد الفانية إذا لم يكن معبود ؟
فما هذا الطريح على الأرض خائبا إلا أنقاض الإيمان . .
ماذا تنتظر السجدة إن لم تكن مرتمية على طريق مرورك ؟
فلينهدم بكل جوه وأجرامه ذلك القلب الذى لا معنى لوجوده ،
إذا لم تكن أنت موجودا فى آفاقه . .
وقد غابت الشموس ومضت الشهور تعال ياضيفى
إنه لمن المحال أن أبقى بالإيمان الخالى من شهودك .

حلوان - ١٣٤١

السجدة

ولقد مضى حين من الدهر حرم فيه إيمانى شهودك ،
كأنى أقبلت على هذا الكون الموحش ولكنى جد آسف !
إذ لا سبيل إلى الطمأنينة فقد استولى رهبوتك على العالم
ياله من خسران !. إلهى لقد أحاط بمعبدى الصياح والنوح من كل جانب ،
إن الأعماق والحفر والشلالات والأغوار والسحب
والرعود والصحارى والمحيطات والمياه والثلوج
والشموس والظلال والأقمار والأشفاق كلها تنوح ! ..
إنه ليسمع دوى هائل كلما قصفت ورعدت أجرامك فى الظلام .

ان النسيم ينفخ فى الصور على قمم الجبال فيجيش الوادى بخلائق كأنها مسوقة للحشر ،
وتهيج البحار وتدور السيول وجدا وتسبح الأحجار قياما ،

وتتلاطم الآفاق وتغلى ينابيع الأضواء فى السموات ،
وتتساقط الدهور وتتخبط أشجار الصنوبر والدلب على الأرض..
كل ذرة من الكون ثملة بسكر أبدى ،
يمينى ثملة وشمالى ثملة رباه ، مهما صنعت فلا جدوى !
وقد مضت الأعمار وأنا فى الانتظار أرقب الطريق بعينى
إن الرؤية لمحال ما بقى العويل يندلع فى أرجاء الكون .

كلا ! وقد هبت هذه الليلة روح أخرى فى السرمدية . .
فاستيقظت ونظرت إلى الفجر رأيته يرتعد لامعا فى الأزل .
وقد تعبت تلك الصيحات الفوارة وثملت تلك الذرات الجائشة .
ليس من ذلك الطوفان إلا نور يندى فى المشرق .
وما تلك القبة الزرقاء، وقد تحول لونها إلى سيناء ، الاقبضة من التراب
إنها مستغرقة فى الخوف والخشوع على حين كانت تنفث أضواء من قبل..
تلك الأجرام يالها من عيون فانية فى المولى . .
لا تلتفت الآن ولو مرة إلى الأبعاد . .
إن البحار والأمواج والجبال والاشجار والظلال غارقة فى التفكير .
رباه! لا ظل يقشعر فى جوانب الآفاق . .
النسيم هادىء والمياه هادئة
وما أبلغ معنى تلك السموات فى خيال البحيرة الراكد كأنها وحى من قدرة الله .

إنى نظرت بالأمس إلى هذا الكون الموحش ياله من حانة جائشة !

ورأيت السكارى اليوم وقد ثملوا بجرعة علوا بها بعدما نهلوا . .
إن العالم كله ثمل بشراب التوحيد الذى سقيته أنت . .
أنا وحدى بجذوبك الذى لم يثمل والميدان الآن لى . .
دع معراجى فليظل فى سيره الخاسر . .
فليزلزل خشوعى العرش حين يتزلزل ركوعى على الأرض . .
رباه ، أنا قطرة تائهة منك ألا تكفينى خسارتى ؟
دع إيمانى فليفض وليجش هذا الكون الموحش ؟
لا صوت فى الكون دع النوح لمجذوبك الآن . .
دع تهليلى يتردد وليكن بعد هذا ماهو كائن . .
رباه ، إرحم هذا الوجد الطريح الفاقد الوعى . .
دع وجودى فليكن قطعة واحدة من السجود مع الكون . .

حلوان - ١٥ يناير سنة ١٣٤١

الأستاذ حسام

وقف السلطان من حاشيته على شهرة الأستاذ حسام
فأحب أن يمثل الأستاذ بين يديه ،
وصدرت الإرادات السنية إليه أما الأستاذ فاعتذر ولم يجب
بل لم يمر بجوار القصر فيما بعد ..
ولكن اقتضى الأمر بعد حين
من عهد ذلك الدلال والاعتزاز
أن قصد المثنويخوان[1] حي بشكطاش
وبلغ هذا مسامع حاشية السلطان عبد المجيد
فسألوه: « هل ندعوه ؟ »قال: «نعم »

(١) مدرس المثنوى لمولانا جلال الدين يعني الأستاذ حسام .

وإذا بالحرس الملكى ينطلق جماعات لمقابلته.

ولما وصل الأستاذ إلى جوار (دولماباغچه)[1].
التحق به أفراد الحرس مثنى وثلاث..
فقالوا له: «إن مولانا أوفدنا وهو يقرئك السلام
ويقول ألا يحب الأستاذ أن يلقانى؟ بودى أنا أن أراه
والقصر ليس ببعيد لاتفرقنا منه إلاعدة خطوات،
نرجو أن تتوجهوا إليه هذه المرة
نرجو رجوعكم...»

ـ إسمعوا واصبروا!

لقد انقضت خمس وخمسون سنة وأنا أمضى فى هذا السبيل
الذى قطعت فيه شوطاً كبيراً من حياتى وأنا مازلت بعيداً من نهايته
فاذا مارجعت فهى الطامة الكبرى...

حلوان ــ ١٣٤١

---

(١) قصر للسلطان على شاطىء البحر باستانبول.

استخلاص عبرة من القصة

يقولون إن الإنسان يتعظ بالحوادث الماضية ما أسخفه قولا !
هل اتعظ بنصف عبرة من تاريخ خمسة آلاف سنة ؟
يصفون التاريخ بالتكرار وأنه يعيد نفسه
فهل كان يتكرر لو انتفعنا بالعبر ؟ . .

لصورتى

بعد ما يغطى التراب ظلى الذى يحول عليه
ستمحو الأيام هذا الشبح آجلا أو عاجلا . .
إن معنى الأبدية للإنسان هو أن يذكر بالرحمة بلاشك ،
ولكنى قضيت العمر بلا صوت ،فمن يعرفنى ؟ . .

لصورتى

إذا كان لك على هذه الأرض أثر ذو حياة لا يفنى
فان جوف التراب ليحملك على أكتافه ولو كنت ميتا . .
أيها الانسان الذي يأمل وفاء من الظلال ،
كم يوما سيذكرك هذا الشبح الأسود ؟

تهنئة(١)

إن شمس الرحمة تلك نزلت من السماء
على الآفاق كقطعة من القمر هذا المساء الميمون ،
ابتهل إلى الله أن يلمع إيمانك على جبينك أيها الأمير ،
ما بقى قنديل تلك الليلة الأبدى بنور .

تهنئة

ابتهل إلى الله أن تحيط مئات من الأعياد
حياة الأمير ، بحلقات متماسكة بالأيدى
كما يطوف الحجاج غدا بالكعبة ،
ويدورون حولها وافدين من مشارق الأرض ومغاربها !. .

---

(١) الى ولى نعمتى سمو الأمير عباس حليم .

لأجل صفحات[1]

« تعيش بعدى وتذكرنى بالخير . . »
هكذا كنت أقول كلما نظرت اليك يا كتابى المسكين
من كان يعتقد أنك ستقضى ويبقى بعدك
عمرى الحرب الذى أفنيته فى سبيلك ؟

لصورتى

لقد ابيض محيا وجهى ولكن
لا تسألوا عن محيا ضميرى فهو أسود فاضح !
وقد أخجلنى من نفسى الآن
منظر صورتى التى لا تشبهنى قط ..

---

(١) اسم ديوانه الكبير . وهو يشير بهذه القطعة إلى ما نكبت به آثاره الشعرية من تبديل الحروف اللاتينية بالحروف التركيه الاسلامية .

ترجمة من الشيخ سعدى

حل الربيع فنبتت الأعشاب والخزامى والورود
يا وردتى أنت وحدك التى لم تنبت من هذا التراب ،
بينما أبكى كسحاب الربيع على قبرك
أريد أن أجهش بعبرات غزيرة حتى تبرزى من الأرض !..

المولد النبوى

يا لك من ليل إلهى وحيد فى السرمدية!
أنا متحير لذلك الغد الذى أشرق منك
ليس فى القلوب شىء يسمى ضوءاً سواه
ولو انطفأ لاستحالت الحياة ليلا حالكا طويلا
لا تسأم من كلماتى المتداعية واعذرنى يا رسول الله !
انى جننت ولكن بليلى الوادى الذى افتتحته أنت !

إلى أولادى

إن أباكم ياله من حطب ! . لم يعد صالحا لمقبض فأس .
اياكم ان تكونوا مثله . . فسوف تلقون فى النار !
لم يعش من يريد البقاء كشجر البلوط بلا حراك ..
لقد انقضى ذلك العهد، والآن هذا عهد الانسان المشذب المصقول !
شذبوا رؤسكم واصقلوها
ولكن اياكم أن تشذبوا سواعدكم ! .

عريضة [1]

أيها النسيم سوف تمر بالشمال لا محالة
فهلا قضيت لى حاجة نفس أسألك قضاءها ؟
إذا قطعت الأميال الثمانمائة كأنك نسمة خاطفة ،
ورأيت أوطانى كأنها أحلام .
فأنعم النظر على صدر بحر « مرمرة » تر
راقدا قد غاص رداؤه فى بحر من الزمرد
يدعى اسمه (هكبه لى) هى جزيرة أنت تعرفها
وما حولها إنما هى جزر مثلها . .

---

(١) الى ولى نعمتى سمو الأمير عباس حليم .

قد رأيتها، أجل ! قف قليلا على هذا الشاطئ.
واطرق باب قصر الأمير عباس كسائر الناس . .
وبما أنك قادم من سفر فخليق بك
أن تمثل بين يديه توا . .
حينئذ إعرض عليه اخلاص أهل حلوان
وقل له بعد هذا : « إن هناك
رجلا عابثاً موفقا فى قرض الهذيان
يهذى بالاشعار كأنه يهذى هذيانا منظوما ! . .
اخال أنه من الشعراء القدماء المتقاعدين
إذ ليس فيما يقوله أى تجديد ، كله قديم !
وهو لا يزال مبقيا على لحيته وشاربه
وآثاره راضية بالمظهر الرث . .
فى وسعه أن يعد الشهور القمرية عن ظهر قلب
ولكن ياله من لغز لايدرك معنى القرن العشرين !
وقد تجول فى المعمورة متمهلا
ثم قالوا له أخيراً : « العب على الرمال قليلا »
ولكن اسألوه هل يطيق هذا ؟
هل يلعب المرء وهو فى النار ؟
يا أيها الذين انتحوا إقليم « هكبه لى » منذ الشتاء
يا أيها الذين خالوا صيف أفريقية أسطورة من الاساطير

والذين يجرى على الماء زورقهم ذو المجاذيف الستة كجريان الزيت
والذين يتخيلون أن مدة المسافة بين «مالتپه» و«پنديك»(١) ليست إلا لحظة
والذين يستريحون تحت أشجار الصنوبر
والذين يكسبون راحة العمر فى كل شهيق وزفير!..

بينما تغلقون أنتم النوافذ لتتقوا تيار الهواء
اذا بنا نحن نلتجىء الى السراديب للتخلص من وقدة الحرور
وبينما تأكلون أنتم أفخم ضروب سمك المرجان(٢)
اذا بنا نحن نشوى على الرمال كسمك «الچيروز»(٣)
وبينما تتفرجون أنتم بالمنظار على آفاق «مرمره»
إذا بنا نحن نتسلق السطوح لشم نسيم الصبا
وبينما أنتم قد نشرتم الشراع تجرون على الماء
إذا بنا نحن قد جن جنوننا نلقى اليكم النظر متحسرين،
أنصفوا أما آن أن تقوم القيامة؟
إنها قائمة بلا شك.. رحم الله جدك أيها الأمير
لقد زهدت مختاراً عن لذائذ «هكبه لى»
فهب لى أنت مصيفا على رمل الاسكندرية، إن الاصطياف فيه لسار!

حلوان - ١٣٤٥

---

(١) اسم ضاحيتين للاصطياف باستانبول
(٢) نوع من السمك
(٣) نوع من السمك الجاف المملح

ليلة

فى ليلة من الليالى قبل أربعة عشر قرناً ،
ظهر من الرمال يتيم كالقمر .
ولكن يالها من خسارة . . لم تشعر به الأبصار
وقد كان الناس ينتظرونه منذ آلاف السنين .
وأنى لهم أن يبصروه .. لم يبصروه
لأنه ظهر فى القفار الجرداء بعيداً عن الأنظار ،
والدنيا المعمورة يومئذ لم تكن خالية من الأزمات
بل كانت أسوأ حالا من هذه الأيام ،
فاقت ضراوة البشر يومئذ ضراوة السباع
فمن لم يكن له ناب التهمه أخوه

إذ كانت الفوضى قد عمت آفاق الأرض
وتفشى مرض التشتت الذى يهدم الشرق اليوم ..
بعد حين من الدهر بلغ اليتيم سن الاربعين
وإذا بالارجل الدامية التى كانت تمشى على الرؤس تكف عن المسير
وقد انقذ الانسانية ذلك الصبي البرىء بنفخة منه
وهزم قيصر وكسرى بضربة ..
وإن العجز الذى كان نصيبه أن يوطأ بالاقدام عاد إلى الحياة
والظلم الذى كان يأمل الخلد قد قضى عليه
وإن الشرع الذى بعث به كان رحمة للعالمين
وقد شمل ظل جناحه كل من طلب العدل ،
ما تملك الدنيا اليوم إلا ما وهبه هو
وهى مدينة له بمجتمعاتها وأفرادها .
إن البشر بأسرهم مدينون لذلك الصبي ،
فابعثنا يا إلهى يوم الحشر على هذه العقيدة !

حلوان - ٧ - ١٢٤

لا أثر ولا سرج

« إذا مات الآدمى خلف تراثا »

« وإذا نفق الحمار خلف سرجا »

إن آلافا من النواصى تسعى لتحقيق هذه الغاية
وما أكثر ماتندى بالعرق ..
على أنى لا أفهم معنى لحرص البشر على البقاء
فلو سئلت عن قيمته لأجبت أنه أسخف النزعات ،
هبك تركت على هذه الأرض أثراً لا يفنى
فما جدواه مادام تقديره خاضعاً لرغبة الراغبين ؟
خذ الحكمة التى قامت الدنيا حولها وقعدت بالأمس
وسل أصحاب التقدير عنها اليوم إنهم سيجيبون أنها ليست من القيمة فى شىء
إن الآية التى أبدعتها أنت ونالت الإعجاب ورفعت فوق الرؤوس بالنهار
لو بحثت عنها بالليل لوجدتها قد ألقيت فى سلة المهملات ..
فمن كان على شك مما قلته فليختبره
ما من أحد من الذين تقدموا للتجربة لم يندم
وإنى على يقين بأن الأجيال القادمة
سوف تضرب آثارنا بأرجلهم فى ازدراء وستسميها سرجا .
ما أقوى خبرة من يقضى حياته من غير ضجيج
فلا يعرف أحد ما خلفه أأثر هو أم سرج ؟ . . .

حلوان — ١٣٤٦

الدرويش أحمد[1]

قال: «شربت طول العمر وكفى .. فاتركه!»

وما كان من الدرويش أحمد إلا أن اهتدى وتاب.

أى توبة! ضرب الأباريق على الحائط فحطمها

ولم يترك كأساً ولا طاساً ولا إبريقاً إلا قذف به.

فطغى طوفان من الخمر فى الحجرة وغمرتها المياه

وطفت مسوغات الخمر على أمواج التيار.

وقد أظهر الشيخ كرامته حينئذ وبسط السجادة على تلك الأمواج

ثم ألقى النظر بنشوة الظفر على ماجرى ..

ولكن لم يكد يطول أمد نظر الإنسان إلى شىء حتى يمل

(١) بمناسبة استقالة عازف الناى الشهير توفيق من توبته الأربعمائة بعد الألف.

وصاحبنا ضاق بالتطلع ذرعاً ..
لما اقترب الظهر قام ونام وطاف فلم يجد نفعا .
إذ شعر فى نفسه بفراغ لم يستطع سده ،
سبح الله تسبيحا وحاول أن يستغرق فى التوحيد فلم يتمكن ،
وأدى الشعائر كلها ولطم صدره بلا طائل ..
إن عمر الساعة كان بالأمس أقصر من نفس واحد
وما أطول كل ثانية تمر اليوم كأنها سنة . .
مضى ما مضى .. ولكن الدرويش ليس قادراً على المضى
راح يهز النافذة والسقف ويركض الأرض ركضا
دون أن يقدم الزمن لحظة ..
والزمن ما أشد حرانه يظل فى سكونه ولا يخطو خطوة إلى الأمام ..

فما كان من صاحبنا إلا أن تقدم بنفسه
« حنانيك يا أحمد ! أصغ إلى :
هل أنت مقدم على نقض توبتك ؟
وهل أنت مصمم على ألا تبالى بخاطرى ؟
أتوسل إليك يا أحمد لا تذهب! »

إن إلهام جذبته لابد أن يكون شديد الوقع
فقد أطاع الدرويش الأمر الآتى من تلقاء نفسه
وسلك سبيله دون أن يلتفت إلى ما حوله

« يا أحمد يادرويش ، أنت ذاهب الآن ولكن لاتعرج شمالا
ها أنت ذا قد وصلت إلى الزاوية .. أرجوك أن لا تمضى ..
يا أحمد إن نيتك لا تبشر بخير
أتوسل إليك أن تتجلد
أرجوك يا أحمد
أرجوك أن تقاوم ! »
ولكن أحمد لايبالى وينقاد للتيار
لو تأخر صدره فسوف تتقدم رجله
« وما الخطب ؟ هل وصلت إلى الحانة إياك أن تدخل
يا أحمد إن العاقبة لأليمة
أرجوك ألا تدخل
أرجوك ألا تقف
ياأحمد تشجع ، ياأحمد
إن الممر خطير إمض يا أحمد
ياله من غوص وياله من غرق ! »

يلج الدرويش باب الحانة بعد نزاع خائب ..
« مادمت دخلت أيها الدرويش
فاخرج دون أن تتناول الكأس حتى يقولوا إنك ولى !
هلم يا أحمد يابنى قليلا من المجهود .. »
« ماهذا الجلد يا أحمد وما هذا الصبر ؟

لقد دخلت الحانة وجلست وفرشت سجادتك
واحترقت والتهبت من الظمأ ثم وقفت كالجبل وصمدت كالصخرة .
قلت كالجبل وقلت كالصخرة أفهذا حق ؟ — هيهات !
الزلزلة تهز الجبل والموجة تغمر الصخرة
كم من زلزلة أصابتك فلم تستطع أن تهزك
أيها الأسد ما أعظم ما خلقك الخالق !
إن التوبة التى استمسكت بها بلغت مبلغ العجب
ولشد ما كان هول ذلك الطوفان فى وقت السحر ؟
وقد دست أنت الموجة واجتزت تيار الدوامة
وألقيت السجادة على (الجودى) ونزلت هناك إلى البر !..
يقولون إن (أدهم) رفض الدنيا وتخلى عنها
فهل لطم أبريق الخمر ؟ كلا !.
أيها الولى ، بجل نفسك وقدرها !
إن فيك المثل الأعلى وليس فى العلماء.
ما أعظم قدرك وما أثمن جوهرك ،
أنت سلطان السلاطين المتنكر تحت العباءة
أنت عبد على بن أبى طالب الذى يسقى الكوثر..
فلمن يطلب الخمر من لم يطلبها لك ؟

هلم يابنى وسل : مايشرب حضرة الغوث الأعظم ؟
أفعم للدرويش أيها الساقى إبريقين وأضف ثمنهما الى حسابى !.

حلوان — ١٣٤٦

إمام سعيد باشا[1]

لقد جاش النور من الثريات وأزبدت القناديل . .
إن الآفاق تردد صدى سيول هذه الأضواء .
فوجه القصر مثل الثريا منير من أقصاه إلى أقصاه . .
ومنافذ فتحت إلى نصفها وثملت من فرط الألوان والأضواء . .
وشواطىء لبست حلة من المصابيح الملونة بالأزرق والأخضر والأحمر
وأشجار سرو فضية ألقيت في اليم يرتعش بريقها فيه . .
وزوارق ذات ستة مجاديف تتواثب على الأمواج . .
وتنقض مثل الشواهين مئات من المجاديف على الشاطىء .

---

(1) أصغيت مرة في صغرى الى هذا الرجل الذى كان صوته الهبا مثل خلقه ولكن لا أدرى من هو سعيد باشا هذا .

على حين تعلو هذه الأفواج وتصل إلى البر . .
إن الصفوف التى سبقتها تغمر عتبات القصر . .
وقد فرش الرصيف بطنفسة إيرانية زمردية اللون :
كأنها أعشاب نبتت على البحر وفى أعلاها قصر الأميرة . .

إن الرؤس كالأزهار المفتحة الكثيرة الألوان التى تملأ الأرض . .
وهذه القلانس والعمائم والبرانس والبراقع . .
والطيالسة وزينات الرأس والطربوش . .
وزخارف شتى صنعتها السيدات بأيديهن وتزينت بها . .
إن معظم أفراد هذا الجمهور يزورون القصر بدون دعوة . .
إذ الأبواب التى كانت تغلق على وجوههم فتحت الآن لكل زائر . .
إن القصر بفنائه وحديقته ـ وقاعاته ساحة للمد والجزر . .
وصينيات على رؤس قد أحدقت بأطرافها . .
وهى تطلع وتدور كالبدور فى الجو . .
وروائح الطعام تفوح لها نكهة نفاذة . .
فتتراخى الأعصاب المتوترة حينئذ . .
والرؤس تثمل منتشية بطعم الحياة . .
والأيدى تنطلق لنيل قصب السبق ، هيهات . .

أما الطابق الأوسط والأعلى والقاعة فللمدعوين . .
والموائد مبسوطة على طنافس نفيسة . .

والجماعة تراعى حدود المراسم بينهم ،
وليس فيهم سوى الخاصة من ذوى الوقار ..

يؤذن مؤذنان لصلاة العشاء بعد ميقاتها بقليل
والسجادات الفاخرة تفرش طولا وعرضا
والجماعة تقيم الصلاة فى خشوع
وتسبح وتبتهل إلى الله ..
ـ اقرأوا المولد !

ـ لم يحضر القارىء

ـ ابحثوا عنه

ـ لم يره أحد

ـ إنه سيحضر من (اسكدار) إن وفى
وإلا فلم وعد ؟ ..

ـ دعك من هذا المجذوب

ـ أما أنا فاستبشر بتخلفه .. إن القارئين
الموجودين أروع منه ترتيلا
ـ لا أدرى

ـ أسمعتم القارىء الآن ؟
ـ نعم من أسمى ما يمكن

ولكنه لا يقارن بالاستاذ الغائب

ـ ياللعجب !

– إن هذا البلبل لم يعد له نظير فى الأوكار
– وأنت طيرته فى سماء المدح

– هو ليس فى حاجة الى من يطيره

ليته حضر ولكن لم يأت ولا أدرى ما السبب ؟
– والانتظار لا طائل تحته ليس هناك آيب ولاذاهب
– إن الخبر لدى آغا الحرم . .

- ماذا يقول يا ترى ؟

– إنه يبلغ أمر البدء فى المولد
أظن أن السلطانة الوالدة غضبت على الأستاذ . .
– وغضبها ليس بلا سبب فان الرجل استحقه بدون شك
كيف لايعبأ بالسلطانة وبضيوفها
ويدعهم فى انتظاره بلا مسوغ
بل يضحك قائلا : « إنى احتلتكم أيها البلهاء »
لا تطاق هذه النغمة ولو من بلبل منقطع النظير
- من يدرى لعله معذور

– لا أعفو عنه ولو كان ذا عذر . .

بعد برهة يبدأ المولد بتقاليده المعهودة
فيقرأ التوحيد أولا يسمعه القوم فى خشوع
ثم تليه نخبة من الأصوات اللطيفة . .

ترتل تارة من موشحات وتارة من آى الذكر الحكيم
وطورا تجيش مع الجماعة
بتأثير التلاوة وتقول آمين ..
وإذا بأنين يدوى فى الظلمات كالرعد
فيقف نبض الليل ويرتعد الإنس والجن
والمنافذ تفتح وتنقلب آذانا صاغية
على حين يبتعد الأنين قليلا قليلا عن الشاطىء المقابل
والبسفور يعكس أصواتا كصور المحشر
فصدر السماء يشتعل وينقلب مثل سيناء حينما احترقت بصعقة موسى ..
كأن مئات من الناى تنثر لهيبا على المحيط
إن سيلا من النار يتدفق فى كل جانب
والجبال تئن وتردد ألحان داود ..
وبينما ينفذ ذلك النفس القدسى فى الأشباح
تفور الأرض وتجيش الأمواج
وتنشد بصراخ طويل ومديد :
« إنك سيد الرسل والملك الممجد ياسيدى »
« إنك دولة سرمدية للبائس ياسيدى »
« إنك رسول مؤيد بمنشور (لعمرك) ياسيدى »
« إنك فخر الماثلين بين يدى الله ياسيدى »
« إنك أنت أحمد ومحمود ومحمد ياسيدى ! »
« إنك أميرنا وليت علينا من قبل الحق ياسيدى ! »

هكذا تخرد الأصوات وتنطفىء بالتدريج
وإذا بزورق متداع يرسو على الشاطىء
وقارىء المولد ينزل منه ويسرع إلى القصر
تسأله السلطانة الوالدة : «أين كنت أيها الشيخ ؟
إذا أخلف مثلك أيضاً ميعاده فعلينا السلام! »

— قصدت إليكم بعد المساء ... وسلكت السبيل
ومشيت بعض الوقت — يا للقدر ! —
وقد عرضت لى امرأة مسنة
وقالت : « قف قليلا يا بنى ! » فوقفت ،
« أنا واثقة من أن صدرك لايخلو عن الإيمان
فأسد إلىّ خيراً ولا ترفض فإنى أم .
قد قضى عليها سلطان الموت بدفن فتاتها الشابة
وقد حلت ليلة الأربعين هذه الليلة فنويت
الاحتفال بها والقارؤن كثير
إلا أنى لاأملك المال الوفير لاطعامهم..
أما أنت فشيخ من علماء الدين لا تبخل على بقراءة المولد
هيا بنا نذهب أكرمنى بهذا الصنيع
أرض روح فلذة كبدى
حتى يجعلك الله فى الدارين عزيزا . . »

أذ هلنى ما قالته السيدة
فلم أعد أذكر القصر ولا السلطانة
قلت : « هيا بنا ولتبلغ المحنة أشدها ،
إن عظمتك لقادرة على احضار مئات من القارئين
أجود منى قراءة .. أما والدة الفتاة البائسة
فستمد يدها تتحسس الرجال وأشباه الرجال
وهى تظنهم من البشر ولكنها سترجع صفر اليدين ..
إن السنين هى وحدها التى تكفكف دموع البائسين
ليضرب الفقير برأسه الصخرة العاتية فلن ينال شيئا ،
لا يحفل احد لأحزان احد بلا درهم ولا دينار
لقد أطلت انتظاركم إلا أنى لم أجد بدا من ذلك ...
فما كان من السلطانة إلا أن قالت: « كفى لا تثر دموعى
فما عليك إلا أن تقرأ المولد من جديد وننتهى ... »
حلوان - ١٣٤٧

صورة

لعلك تذكرنى بالرحمة إن سمعت يوما
أن صوتى سكت خائباً فى هذه القبة الصماء ..
فارجع البصر ولو كرة واحدة إلى هذا الظل
لكى أشعر إلى الأبد بنزول النور على قبرى !

النفس العزيزة

لا يعبد البشر سوى صنم نفسه
فلا أصدقه ولو سبح الله وقدسه طول الدهر ،
وقد هلكت أنا فى سبيل هذا الصنم الملعون
فلم أسمع من جوفى الفاسد سوى « عاشت النفس العزيزة ! »

بلغت الستين

لم أرض الخالق ولا الخلق أما الخليقة فتطلب فنائى ،
فمن هو الذى سر منى أهو نفسى ؟ حاشا !
ولقد ظل ستون ستاراً من حياتى تنزل واحداً فواحداً
فوقفت ازاءها ثائبا ولم أخجل من نفسى . .
فلترتفع تلك الستائر المسدلة والأمر واحد!
أبمثل هذه البهيمية أكون آدميا ؟ . . .

إلى نوروز

هل لك أن تسمع عمك العجوز يا ولدى نوروز ؟
لا تقل كبيراً ولا كثيراً فعلى المرء أن يعمل . . .
لا تمتثل للمكثار ولا لذوى البطون
كن صادق الوعد خالص النفس وتشبه بقومك !

أين أنت ؟

أين أنت تنزهت عن المكان أيها المعبود الذى لاتدركه الأبصار ؟
إنى أجوب الأنفس والآفاق منذ الأزل . .
إن قطرات الضوء تلك التى انتثرت فى قبتك وجمدت
ليست إلا آثار دموعى التى تبحث عنك فى كل مكان . .

الحقيقة الوحيدة

لم أتعلم من الدنيا سوى حقيقة واحدة
وإن تجولت فيها حائراً نحو ستين عاما،
والحقيقة هى أننا كنا عشاق أنفسنا المدلهون
أما افشاء هذا الغرام فثقيل لا يطاق !

إلى شريكة حياتى

لم ألبث أن أسرعت لكى أخرجك إلى النور
يا من رافقتنى طول حياتى المتموجة !
لقد تخطيت كل ما اعترضنى من جبل أو صخور
غير أن الذى يصدم جبينى هذه المرة هو حجر قبرى !

الفنـــان

إلى جناب آرجى بوله بولوق روزفلت(١)

سمعت هذه الحادثة منذ ثلاث سنوات
فعساها تجد من يهمه الانصات إليها :

عندما غادر القطار (بوستون) بعد الزوال
انصرف من كان فى القطار
فلم يبق احد فى الحجرة التى تسع ثمانية إلا أنا ،

(١) نجل روزفلت المشهور الذى انتخب مرتين لرئاسة الولايات المتحدة فليس بغريب أن يقدم معتكف بأفريقيا أثره إلى أحد أبناء الأرض الجديدة ان هذا الشاب النبيل أحسن ضيافة الأمير الهاشمى الفنان محى الدين عندما زار سموه (نيويورك) مما أثار اعجابنا واستحساننا نحن الشرقيين أيضا وانا شاكر بظهر الغيب لهذا الجميل . .

وقد فكرت فى الاستراحة المطلقة بعيداً عن الناس . .
أما السماء والأفق والأرض فلتجر فى الخارج لمستقر لها
أليست الزاوية التى جلست فيها ثابتة ؟ أما ما عداها فلايعنينى!..
يا لها من أشجار زمردية ويا له من زرع يموج
أزهرة أم منزل؟ . . يا له من ريف مزدهر كالمدن
ويا له من طريق جميل . . ويا لها من مناظر بديعة . .
وما أكثر المصانع !.

وعندئذ أخذنى النعاس

فأصبحت الذكريات التى مررنا بها أثراً بعد عين . . .

بينا كنت أروح وأغدو فى مسارح الفكر
اذا بى أرى الحجرة لم تعد خالية
واذا أمامى نجمة فاتنة
بريقها يبهر النظر فيخر ساجداً
بين يديها مشدوها . .
وبجانبها — حبيبها ولا شك —
شاب نبيل وقور كريم الأصل
تدل أسارير وجهه على أنه فنان . .

وقد لبثت حينا ساكنا فى زاويتى
خشية أن أفزع هاتين اليمامتين،

وقد تبين لى بعد ذلك أن لا داعى لحيطتى هذه
اذ الفتاة المستغرقة فى حبيبها بعيونها المدلهة
لن تشعر بى ولو هوت السماء على الأرض !
أما الحبيب الذى شقت الهموم أخاديدها فى جبينه
فقد شخصت نظراته النافذة إلى السماء متغلغلة فى أعماقها
إنه يسبح بنظراته النافذة إلى السموات .. وإلى جواره ليلاه
وقد امتلأت عيناه بخيال المستقبل ..
فما أنت وما ظلك حتى يشغل باله بك ؟
فدع عنك هذا وأصغ الى ما تقوله الفتاة :
— أيها الأمير .. إن المقطوعات الثلاث الأخيرة من أبدع ما يكون
إن هذه الآيات لم يسمع المسرح مثلها قط !
مثل أصابعك كمثل شمس الصيف
التى تشعل السحب فتلهب نار الرعد السموات ..
لم تعزف أصابعك بل اضرمت العود
الصارخ تحت خطى الأضواء .
وما أدراك ما كان شعور الصدور التى أنت
عندما صببت أنت اللهيب كله على الأوتار ..
رباه ! يا له من نواح تعالى لهيبه لحنا بعد لحن
كأن مئات من قلوب البلابل كانت تدمى وتحترق
أجل ! إنه صوت يسمعه عالمنا الغربى لأول مرة .

إنه نفخة هبت من فؤاد الصحراء المحترق ،
إنه بيان كنفخة الصور تحشر لها مواكب التاريخ الغابر . .
والله يعلم حينما كان يخفق معزفك كالبرق
كان يتراءى لى سراب ماضى مصر والعراق وفارس
وتهامة واليمن وغزنة وبخارى
والهند والسند . . وكان يتصاعد
دخان جروحها من بلادها الخربة . . . .

– ولكن أنى لى كل هذا الفضل مع عجزى ؟
حسبك ، فانى أستحي أن أشكر . .

– ماذا تعنى ؟

للتواضع حد فيجب أن تعرف حدك !
– لست أعرف سواه !

– كلا ! بل بالعكس . .
هل يمكنك أن تكتم عبقريتك الآن ؟
فالرؤس التى حضرت اليوم حفلتك
– وهم شياطين الفن المعاصرون –
ياله من منظر . . قد سجدت لك واحدا بعد واحد
وهنأوك وفى عاصفة التهنئة
قام جودوسكى [1] وهنأك وقال :

(١) أكبر موسيقار فى العصر الحاضر وأعظم عازف على البيانو

«أيها الأمير ! . لا أعرف نظيراً لقدرتك المبدعة
ما أروع عزفك ؟ إنى لفخور بك . .
أنت فوق الإكبار اليوم . .
لقد بهت السامعون لسحر آيتك . .»

– إنه عطف منه على تابعه العاجز

– كلا ! لم تبلغ

الطبيعة البشرية حب العاجز الفقير بعد وهذه الديار لا تحب سوى الدولار .
أما بلادك أنت فلا أعرفها لعلها على خلاف هذه البلاد . .

– كلا ، ليس الفرق كبيراً إنه قاب قوسين!

– يالها من مصيبة كلنا ضعاف الأخلاق !
ولكن ليس من اللائق الاستهانة بجودوسكى
دع عنك عبقريتك التى طارت شهرتها فى الآفاق ،
فان الذين يعاشرونك يتبينون أصالة روحك
وإذا لم يكن فى صدره هو أيضاً قلب يشعر
فلتكفن الخليقة بكفن من نسيج المعدة !
وهل كان غيره أيضاً من أصدقائك ؟

– لا !

– هل تذكر أقوالهم الأخيرة :

« لم نسمع عزفا أيها الأمير بهذه القدرة على (فيولنسل)
فقليل من عباقرة الفن من سخرت له هذه الآلة الجبارة

التى تندحر عندها العبقريات الصغيرة ..
أما معجزة العزف فهى أسلوب معزفك حينما تعزف على العود .
أجل أن (الفيولنسل) صعبة مستعصية ..
ولكنها غاية فى الكمال ، ولكن العود
على نقيضها بدائى يستعصى على التطور .
كان الرأى السائد أن سيول الألحان تلك لا يمكن أن تفور من صدره ..
ولكنك أنت استطعت تصحيح هذا الرأى
وقد بلغ عودك اللانهائية الفينة بعد الفينة ...
هل كل هذه مجاملة لك ؟

— وما هى إذن ؟

— ارحم ،

أخشى أن ينقلب تواضعك رياء
فلا تخفين عبقريتك ..

— دعى العبقرية ،

إنى أبعد ما أكون عن الكمال ..
— لم تكرر هذه الكلمات الباردة ؟
— لأن الفنان لا يستطيع أن يسمو بساعديه
فلابد للعبقرية من جناح وليس لى جناح !
— أما لك من جناح ؟ ماذا تقول ؟؟ ارفع صوتك .. لم أفهم .
وقبل برهة حين اعتليت شواهق الفن

كيف حلقت وتخطيت حدود القدرة ؟
وكيف تمكنت من متابعة سيرك ؟
فلاشك أنك لم تسر حافى القدمين فى اللانهائى!
أليس بغريب قولك ليس لى جناح ؟
بل كان لك جناحان هما الآلتان اللتان لا يزال رنينهما فى أذنى ..
أين يوجد مثيل عبقريتك التى لا تنشر جناحين فحسب
بل لها أجنحة فى سماء الإلهام حين تطير .
إن الدم الذى يجرى فى عروقك من دم الرسول
فأقل توهج فيه يحدث أصفى ثورة فى الشرق ،
من خلفك أجدادك الذين حكموا الدهور
وأمامك ذكراك التى سيسجلها المستقبل . .
فهل وطىء أرض الوطن أسعد منك ؟
ــ السعادة سراب وهل للسراب وجود ؟
أجل كنت سعيداً أيام كنت صغيراً
ومجلس الأسرة كان قطعة من الجنة .
ولكن سرعان ما اختلف على الأمر لما تخطيت عتبته .
لقد أحاط بالشرق المتحطم دخان ونار
إن الحريق قد أحدق بالبلاد كلها ،
وكل ما كان مفخرة لتاريخى أتت عليه النار والدمار ،
لم تبق حتى الخرائب من ذلك الماضى المجيد ..
بينا كنت أتلوى تحت ثقل هذه الكوارث

كانت البلاد المتداعية تتمزق إربا إربا..
تلفت ورائى : فلا منزل ولا حبيب !
إن الأيدى الغريبة استولت على ما كان واحدا بعد واحد
فلم يبق تحت هذه القبة سوى خيبة أمة خاسرة !
— وبعزفك الأخير جعلت العود يئن معلنا تلك الخيبة . .
— بل لو جعلت العود بل العالم بأسره يردد هذا الأنين
فمن المحال أن أجعل النواح ينطق عن ذلك الألم . .
ولقد قال شاعر الهند الفيلسوف إقبال :

« قد هاج القلوب
أصوات قلبى الهائجة
إن قلبى يجيش بتلك النغمة
التى لا يمكن ترنيمها »

والألم الذى أشعر به فى قلبى الخرب
لم يسمع بعد من لسان مضرابى
إنه لسموم وكيف لبضعة آهات أن تسمعه ؟
إذن فأنت لم تسمعى ولذلك لم تدركى
فأ كثرت الإطراء على سعادتى .
فلا تغضبى إذا تعجبت لما خلعت على الثناء
لا تغضبى واعلمى أنى لست إلا بائساً،
أصارع مخالب شىء يسمى القدر!
إن ساعدى ورأسى قد تعبا من النضال المستمر

أنا واقف على رجلي ولكن شبابي قد ولى ..
ياللخيبة ! لقد ولى فى الوقت الذى أنا أبعد ما أكون فيه
عن خيال الانتصار ولا أمل لى فى الخلاص ..
فكل خطوة خطوتها نحو المستقبل أدت بى إلى الهلاك ..
أى بلاء تخطانى فلم يصبنى ؟
أخيال وطنى الذى استحال كومة من الرماد ؟
أم ضعة أمتى التى خسرت بلادها ؟
أم منزلى اليتيم الذى طارت به العواصف ؟
أم ملكى الذى أودت به الرياح ؟
أم معبدى أو أضرحة أبطالى المتهدمة ؟
أم كعبتى المهجورة التى لا تزار ؟
أم ديانتى الصريعة التى تدمى جروحها ؟
أم صوت البوم الصائح على خرائب هذه العواطف ؟
أية فجيعة لم تكن من نصيبى ولم أرها ؟
إنى أجهل ما يخبئه الغد إنه سر ..
ولكن سأقص عليك خبر اليوم إن استطعت معى صبرا
أنا فى زورق متداع يندفع بى فى عرض البحر
ولعلى لن أستطيع العودة إلى شاطىء الحياة !
هؤلاء أعز أهلى إلى جوارى .
أجد السلوى فى رفقتهم وإذا بعاصفة

تهب فتنقض على الزورق
الذى تحطم وطارت أشلاؤه ..

وابتعد الزورق عنى على أمواج القدر
حيث لا يرى شبحه فى الأفق
فمالى أكافح فى المحيط الذى بقيت فيه ؟
كل ما استمسكت به هو قطعتان من الخشب
كيف أقاوم بهما جبال الأمواج ؟
إن السحب تطبق علىّ كأنها كابوس !
والفضاء يمتلىء بأحلك ظلمات الليل :
يمينى وشمالى وخلفى وقدامى غريق فى الظلام ..
لست أدرى ما غايتى ؟ ما مكانى ؟ ما وجهتى ؟ وما جهاتى ؟
مازلت أدور فى اليأس ولاأستطيع الخلاص !
أنا كمسكين دفن فى القبر حيا ،
تارة تنسفنى الأمواج الجائشة
وطوراً تهوى معى الهوة الجهنمية
التى تفتح أمامى فتملأ الفضاء أنينا !
وتارة يدوى الرعد المختنق تحت السحاب
ويمزق الظلمات ويكشف عن منظر سمج ،
يجعلنى أسأم الحياة فأقول :

« إن القدر لا ينازل وإذا ما انتظرت الموت
فلابد من أن أطرح حطام الخشب هذا !
وحسبي ما كان من كفاحي . . » ولكن لا أقدر ،
وأتحمل أشنع العذاب فلا أقدم على الانتحار !
فأنا أغرق ثم أظهر وهكذا دواليك .

ـ ألم أقل لك يا أمير ،
إنه دم الأنبياء الذي يسيطر على روحك ؟
ـ أجل أغرق ثم أظهر بلا جدوى
بهذه الأعواد التي تسمينها جناحا .
أما هذه الأعواد التي في يدي فهي ليست
إلا أنقاضاً بقيت من شبابي الحرب . .
كنا نريد أن نستمتع بالغروب يا للخسارة ! .
ذلك اللون الوردي إن هو إلا خيال في المغرب . .
وقد استولى حزن الليل على الآفاق اليتيمة
لجعلها كصدور عليها الحداد ، أديري رأسك وانظري :
إن يد الشفق تواسي الآن تلك الآفاق اليتيمة . .
وسوف تواسيها النجوم حينما ينطفئ الشفق . .
أما الصدور ذات الحداد فلن تلبث أن تشرق عليها الشمس . .
ليس لآفاق ليلتي المظلمة
ضوء ولا صوت تحت هذه القبة .

ما لها من نصيب سوى تلك الظلمات الخاوية السرمدية .
وإذا رجعت إلى قرارة نفسى اقشعر بدنى ..
إذ كل أثر أصادفه إن هو إلا بقية من غروب !
أجل ، أثر من غروب ولـكنه عميق عمق العدم ..
فلن تطلع شموس الغاربة إلا يوم الحشر !..
ولـكن ما الذى أثارك أنت ولم هذه الدموع على خديك ؟
لا تؤلمينى أيتها الرفيقة وأنا على وشك الفراق .
والله يشهد ليس صدر يطيق ـ ولو كان حجراً ـ
هبوب العاصفة الممطرة التى تدور فى عينيك !
كلا ! لا أطيق نار إحساسك بآلامى
أتركينى أبك وحدى ، ذرينى ..
أفى هذه الدنيا مصيبة لم أرها ؟
دعينى ولأمض قبل أن أرى هذه العبرات ! .

حلوان — ١٣٤٩

تصويبات

خطأ	صواب	صفحة	سطر
ى	أى	٥١	١٩
فرجت	فرجعت	٥٥	٨
أهانة	إهانة	٥٧	١١
ارتفت	ارتفعت	٥٨	٦
قتعالى	فتعالى	٦٠	١
مجاذيف	بجاذيف	٦١	٥
احمت	ألحت	٧٤	٧

A 74